

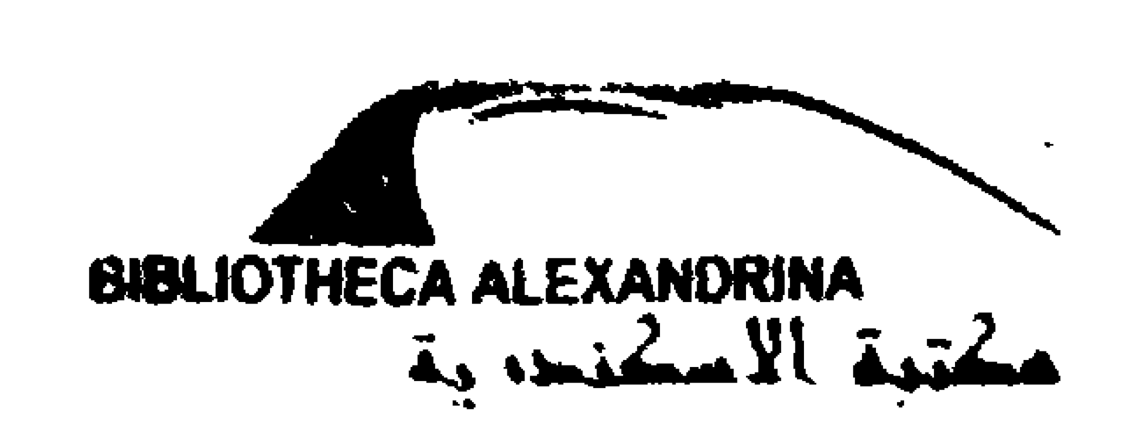


سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (١)

آراء وأحاديث في الوطنية والقومية

ابو خلدون ساطع الحصري



آراء وأحاديث
في الوطنية والقومية

GIFTS 2006

The Swedish Institute

Alexandria



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (١)

آراء وأحاديث في الوطنية والقومية

ابو خلدون ساطع الحصري

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » ـ شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً : « مرعربي »
تلكس : ٢٣١١٤ مارابي

طبعة خاصة(*)

الطبعة الاولى : بيروت : تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٤
الطبعة الثانية بيروت : حزيران / يونيو ١٩٨٥

(*) نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٤

المحتويـــات

مقدمـــة

هذه مجموعة محاضرات ومقالات تحوم حول « الوطنية والقومية » بوجه عام ، وحول « الوطنية العربية والقومية العربية » بوجه خاص .

محاضرات ومقالات . . ألقيت في مختلف نوادي بغداد ، ونشرت في بعض الجرائد والمجلات . . . لشرح عناصر القومية وعوامل الوطنية ، ولمناقشة أهم الآراء والنظريات التي سردت في هذا الباب .

رأيت أن أجمعها في هذاالكتاب،لنشرها بين الناس في هذه الأيام التي زاد خلالها اهتمام الجميع بالمسائل القومية والقضايا العربية اهتماماً مشكوراً .

دمشق ، آذار / مارس ١٩٤٤

أبو خلدون

الوطنيـــة والقوميـــــة(١)

بحث تمهيـدي عـــام

- ١ -

الوطنية والقومية من اهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها.

ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن ، والشعور بارتباط باطني نحوه ؛ والقومية هي حب الأمة ، والشعور بارتباط باطني نحوها .

والوطن ـ من حيث الأساس ـ إنما هو قطعة من الأرض ؛ والأمة ـ في حقيقة الأمر ـ إنما هي جماعة من البشر .

فنستطيع أن نقول ـ بناء على ذلك ـ إن الوطنية : هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ، والقومية : هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة .

ولكن ، مما تجب ملاحظته في هذا الصدد أن مفهوم الوطنية لا يختلف ـ في الحقيقة ـ عن مفهوم القومية كل هذا الاختلاف . ذلك لأن حب الوطن يتضمن ، بطبيعته ، حب المواطنين الذين ينتمون الى ذلك الوطن ؛ كما أن حب الأمة يتضمن ـ في الوقت نفسه ـ حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة .

ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقارباً كبيراً .

---

(١) من دروس دار المعلمين العالية ببغداد . أسست الدار المذكورة سنة ١٩٢٣ .

غير اننا إذا أردنا أن نحيط علماً بماهية هذين المفهومين إحاطة تامة يجب علينا أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث ؛ هو مفهوم الدولة . . .

فالدولة هيئة سياسية يعرفها علماء الحقوق والاجتماع بقولهم « جماعة من البشر ، يعيشون في أرض معينة مشتركة : مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة » .

يظهر من هذا التعريف المجمل أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم الوطن من جهة وبمفهوم الأمة من جهة أخرى ، فيكون بذلك بمثابة خط واصل بين هذين المفهومين ، ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد في كل الدول والأمم وفي جميع أدوار التاريخ ، بل إنه يلبس أشكالاً متنوعة ، فيختلف بين أمة وأمة ، وبين دور ودور .

ونحن نستطيع أن نلخص أهم هذه الأشكال ، كما يلي :

(أ) ان الأمة قد تؤلف دولة واحدة مستقلة ، لها علم خاص وحكومة خاصة وجيش خاص . فالأرض التي تسود عليها تلك الدولة تكون وطناً للأمة بأجمعها ، فيشترك جميع أفراد الأمة وجميع تابعي الدولة في حب ذلك الوطن وتبجيله وخدمته

في هذه الحالة ، تنطبق الوطنية على القومية تمام الانطباق ، ولا تختلف مطالبها عن مطالب القومية اختلافاً فعلياً ؛ فيكون الوطن « مجموع الأراضي التي تعيش عليها الأمة ، وتدير سياستها الدولة » ، والوطنية تماثل القومية تمام المماثلة ، ولا تخالفها أو تعارضها بوجه من الوجوه .

(ب) غير أن الأمة قد تؤلف دولاً عديدة ، كل واحدة منها مستقلة بنفسها . ففي هذه الحالة توجد كل دولة من هذه الدول وطنية خاصة بها ، وتسعى الى تقوية هذه الوطنية الخاصة بكل قواها ، بينما القومية تتجاوز حدود هذه الدول المفترقة ، وتسعى الى ربطها جميعها برباط معنوي عام . فلا ترتاح القومية ـ في هذه الحالة ـ الى الوطنيات الراهنة تمام الارتياح ، بل تنزع الى إنشاء دولة عامة تجمع وتوحد تلك الدول المتعددة بشكل من الأشكال . وتعمل بذلك على توليد « وطنية جديدة عامة » ، تسمو فوق جميع الوطنيات الراهنة الخاصة .

فنستطيع أن نقول أن النزعة القومية في مثل هذه الحالات ـ تولد فكرة « وطن معنوي مثالي » أوسع وأعظم وأعلى من الأوطان الراهنة المذكورة ؛ فتصبو النفوس الى تحقيق هذا « الوطن المرقوب والمرغوب » وتندفع وراء اخراجه من عالم الفكر والتمني الى عالم الحقيقة والواقع .

ومن البديهي ان القومية ـ في هذه الحالة ـ لا تنطبق على الوطنية تمام الانطباق ، بل

تختلف عنها اختلافاً بيّناً ، لأنها تتطلب تقديم مصالح الأمة العامة على مصالح الاوطان الخاصة ، وتثير مطالب الوطن الموحد المرقوب الى جانب مطالب الأوطان الراهنة .

(ج) وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها ، وتابعة لدولة أجنبية عنها . وفي هذه الحالة ، تفرض الدولة الحاكمة على جميع أفراد الأمم الخاضعة لها « وطنية عامة واسعة النطاق » ؛ وتطلب منهم أن يرتبطوا بها وبسائر الأمم الخاضعة لها برباط هذه الوطنية ، وان يخدموها بدافع هذه الوطنية ؛ أما القومية فتعارض ذلك أشد المعارضة ، وتولد في نفوس الأفراد نزوعاً الى الاستقلال عن الدولة المذكورة ، وتجعلهم يصبون الى الانفصال عن الامة الحاكمة ويسعون وراء تكوين دولة خاصة بهم . فيحدث من جرّاء ذلك نزاع وخصام بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التي يشعر بها أفراد الأمة المحكومة . فتكون مرامي القومية حينئذ أضيق نطاقاً من أهداف الوطنية . فإن الوطنية التي تغذيها الدولة تطلب من أفراد الامة الارتباط بجميع اراضي الدولة ؛ بينما القومية تحمل هؤلاء على الاهتمام بالقسم الخاص بهم دون غيره . إنها تجعلهم يتوقون الى الانفصال عن الدولة المذكورة ـ وعن الأمم الأخرى التي تؤلفها ـ وينزعون الى الاستقلال بوطن خاص أصغر من الوطن العام ، في ظل دولة خاصة أصغر من الدولة القائمة . فنستطيع أن نقول : إن القومية في هذه الحالة ترمي الى تكوين وطنية جديدة خاصة أضيق نطاقاً من الوطنية الراهنة العامة .

(د) ولكن الامة قد تكون محرومة من الاستقلال و ـ في الوقت نفسه ـ مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها . من الطبيعي أن كل دولة من هذه الدول الحاكمة ـ في مثل هذه الأحوال ـ تفرض على جزء الامة الخاضع لها وطنيتها هي ، وتعمل على ربط أفرادها برباط هذه الوطنية ؛ ولكن روح القومية في تلك الأمة المجزأة تعارض ذلك معارضة شديدة ، وتحمل جميع أفراد الامة في جميع الاقسام المذكورة على مقاومة الحالة الراهنة . وذلك بالاستقلال عن جميع الدول الحاكمة من جهة وبالاتحاد فيما بينها من جهة أخرى ، لتكوين دولة قومية جديدة ، تجمع أقسام الامة المتجزئة تحت لواء واحد ، على أرض وطن قومي واحد .

هذه هي الأشكال السياسية الاساسية التي تحدد علاقة الامة بالدولة والوطن ، وتعيّن علاقة القومية بالوطنية .

إن الامة السويدية ـ في الحالة الحاضرة ـ من أبرز نماذج الشكل الأول . وأما الامة الالمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ فكانت من أحسن الأمثلة على الشكل الثاني ، والأمة البلغارية في عهد خضوعها للدولة العثمانية كانت من أمثلة الشكل الثالث ، وأما الأمة

البولونية ـ في الفترة التي مضت بين اقتسامها السابق وبين الحرب العالمية الأولى ـ فكانت من أحسن نماذج الشكل الرابع .

ـ ٢ ـ

يتبينّ من ذلك كله : أن القومية تنطبق على الوطنية تارة ، وتختلف عنها تارة أخرى ؛ وتأثيرها ينضم الى تأثير الوطنية احياناً ، ويخالف ذلك التأثير أحياناً أخرى ؛ ولكننا اذا تركنا هذه الفروق جانباً وألقينا نظرة إجمالية على سير الوقائع التاريخية ، استطعنا ان نقول : ان القومية أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول وتكوّن الأوطان منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وأما قبل ذلك ـ لا سيما في القرون الوسطى وفي القرنين الأولين من القرون الأخيرة ـ فكان الأوروبيون أنفسهم يربطون مفهوم الوطن بمفهوم الدولة ربطاً وثيقاً ، ولا يفرقون بينهما أبداً . زد على ذلك انهم كانوا يخلطون بين الدولة وبين الوطن والملك أيضاً . فالوطنية حينئذ لم تكن تعني شيئاً غير الارتباط بالملك والمملكة ، وغير الاخلاص لصاحبها . إنها كانت تتطلب الخدمة في سبيل مجد الملك وشرف المملكة ، وبذل المال والنفس في سبيل ادامة ذلك الشرف وتوسيع هذا المجد .

وكثيراً ما كانت البلدان والامصار تنتقل من حكم الى حكم ، ومن مملكة الى مملكة ، من جرّاء زواج الملوك ومصاهرة الأمراء والبيوتات المالكة . واذا ما انتقلت مقاطعة من المقاطعات من مملكة الى أخرى ـ لمثل هذه الاسباب ـ كان يصبح من الواجب على أهل المقاطعة أن يطيعوا ملكهم ويتعلقوا بمملكتهم الجديدة ؛ وبتعبير آخر : كان يترتب عليهم ـ حينئذ ـ ان يكتسبوا وطنية جديدة مختلفة عن وطنيتهم السابقة .

وأما السبب الأصلي لهذه الأحوال كلها ، فكان الاعتقاد القائل بأن الملوك إنما يحكمون بحق موهوب من الله ، ويديرون شؤون الدولة والرعية بمشيئة الله .

وعندما تزعزع هذا الاعتقاد ثم زال ، كان من الطبيعي أن يتبدل كل شيء في هذا المضمار تبدلاً كلياً ؛ فأخذت فكرة القومية تلعب دوراً هاماً في تكوين الدول وتقرير الاوطان . ولذلك شهد التاريخ تفكك أوصال بعض الدول من جهة ، واتحاد أقسام بعض الامم من جهة اخرى، ـ تحت تأثير النزعات القومية ـ، كما شهد تغلب حقوق القوميات على الحقوق التي كانت تعزى الى الملوك والى الفتوحات.

ـ ٣ ـ

قلنا أن الوطنية والقومية من النزعات الاجتماعية ؛ ويجب أن نلاحظ فوق ذلك ، أن

كل واحدة منها ـ مثل سائر النزعات النفسية ـ تولد بعض العواطف وتؤدي الى بعض الافعال : انها تولد في نفوس الأفراد بعض العواطف ، وتحملهم على القيام ببعض الأعمال .

إن الانسان يحب أمته ـ تحت تأثير النزعة القومية ـ ويشعر نحوها بارتباط قلبي شديد ، ويعتبر نفسه جزءاً منها ، فيفرح لكل ما يزيد مجدها ، ويتألم من كل ما يقلل قوتها . إنه يصبو الى رؤ يتها قوية وناهضة ، ويفتخر بأمجادها ، ويتألم لمصائبها ، وينزع الى عمل كل ما يستطيع عمله للدفاع عن كيانها وعن كرامتها .

كما أن الانسان يحب وطنه ـ تحت تأثير النزعة الوطنية ـ ، فيشعر نحوه بتعلق قلبي عميق ، فيفرح لسعادته ، ويتفجع عند نكبته ، ويسعى لخدمته . حتى انه لا يتأخر عن التضحية في سبيله ، اذا اقتضى الحال .

وأما اذا بحثنا عن منشأ هاتين النزعتين ، فنستطيع أن نرجعهما ـ من حيث الاساس ـ الى حب الموطن والأهل . ونستطيع أن نقول : ان منبع الوطنية ـ وبذرتها الأولى ـ حب الموطن ؛ وأما منبع القومية وبذرتها الاصيلة ، فحب الأهل .

ذلك لأن الانسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط قلبي بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه ، كما يشعر بتعلق باطني نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذين عايشهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه .

كلنا يعلم أن الاطفال الصغار يظهرون تعلقاً شديداً بالمحل الذي ينامون ويلعبون فيه : انهم يرتبطون ارتباطاً معنوياً بالغرفة والدار ، والحديقة والشارع التي تكون مسرح حياتهم وساحة ألعابهم . إنهم يحسبون تلك المحلات ملكاً خاصاً بهم ، ويشعرون بنوع من الراحة والاطمئنان حينما يكونون فيها . ويشعرون بشيء من الغربة والقلق حينما يبتعدون عنها . وهذا الشعور يولد في نفوسهم حنيناً نحو مرباهم ، وتشوقاً للعودة اليه . كما انهم يتعلقون تعلقاً شديداً بأمهاتهم وآبائهم وأترابهم وجيرانهم ، وبكل من يعايشونهم مدة من الزمن . انهم يشعرون بأمن واطمئنان في حضور هؤلاء ، بينما نجدهم كثيراً ما يعرضون وينفرون من الغرباء .

إن هذا الارتباط المعنوي الذي يتولد في نفوس الأطفال نحو الأهل والمربى ، يتوسع بالتدريج ، ويشمل شيئاً فشيئاً ، الحارة والقرية والمدينة ، وأهل الحارة وأهل القرية وأهل المدينة .

إن هذه الصلة المعنوية والعلاقة النفسية تظهر نفسها بقوة أعظم حينما يغترب المرء عن مسقط رأسه ومسرح صباه ، ويفارق أهله وذويه ، ولا سيما حينما يلاقي في ديار الغربة

أحداً من أبناء بلدته ؛ أو يسمع شيئاً من أخبارها ، وعلى الاخص حينما يعود اليها بعد فراق واغتراب .

ونستطيع أن نقول : ان الانسان يرتبط بموطنه وبأهله بروابط معنوية كثيرة ومتنوعة . فإن كل جزء من أجزاء حياته ، يتعلق بزاوية من زوايا بيته وبلدته . فكل زاوية من زوايا ذلك البيت ـ وكل قسم من أقسام تلك البلدة ـ يقوم مقام تذكار مادي يثير في نفسه ذكريات صفحة من صفحات حياته الماضية ، أو ذكريات منقبة من مناقب النفوس العزيزة عليه .

ولهذه الاسباب كلها ، نجد أن البلدة التي تكون مسقط رأس الانسان ومرباه ، تشغل مكانة خاصة في معنوياته ؛ بمناظرها وعاداتها ولهجاتها ، وبكل ما لها من خصائص وأوصاف .

وبما أن تعلق المرء ببلدته وبأهله ، يكون ذا جذور عميقة في أغوار نفسه ، فإننا نجد أن هذا التعلق يكتسب احياناً شكلاً مرضياً ، ويولد مرضاً خاصاً ، يعرف باسم داء الصلة ـ نوستالجيا Nostalgia . إن بعض الناس يصابون بهذا الداء حينما يفارقون أهليهم ويغتربون عن بلدتهم لأول مرة : لأن أذهانهم ومخيلاتهم تشتغل بذكرياتها بشدة غريبة ؛ فيشعرون نحوها بحسرة عصبية وحنين مرضيّ . وقد يستولي عليهم نوع من الوسواس ، فيخيل اليهم انهم سائرون نحو الموت بعيدين عن بلدتهم وعن أهليهم . وتحت تأثير هذا الحنين المرضيّ يفقدون شهية الطعام ، ويصابون بأرق شديد؛ ولا يشفون من هذه الاختلالات النفسية والعصبية ، الا حينما يعودون الى بلدتهم ويصلون أرحامهم ويلاقون أهليهم وأصحابهم .

إن تيسر أسباب الانتقال ووسائل المخابرة ، قد عود الناس على الاسفار ؛ فقلل الاشكال المرضية لهذه الرابطة المعنوية ؛ ومع هذا فانه لم يقض عليها بتاتاً .

ومن الأمور الثابتة ، ان الكثيرين ممن تعودوا الاسفار يشعرون بسرور وفرح حينما يلاقون في أسفارهم ما يذكرهم بموطنهم ومسقط رأسهم ؛ ويشعرون بهياج ونشوة ، حينما يعودون اليه ويلتقون بأهليهم وخلاّنهم بعد مدة من الاغتراب .

إن حب الوطن يشبه حب الموطن الذي شرحناه ، وحب الأمة يماثل حب الأهل الذي وصفناه . فنستطيع أن نقول : ان حب الوطن انما يتولد مع من توسع دائرةحب الموطن ، كما أن حب الأمة انما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فإن الانسان ينظر الى موطنه كجزء من الوطن ، كما ينظر الى أهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين . ويحب وطنه ومواطنيه ، كما كان يحب بلدته وأهل بلدته ؛ ويفتخر بوطنه وبأمته ، كما كان يفتخر ببلدته وبأهله وبذويه .

ومع هذا يجب أن يلاحظ في هذا الصدد : ان علاقة المرء بالوطن لا تنشأ من تفاعل مادي محسوس ، كما تنشأ علاقته بمسقط الرأس ، وكذلك حدود هـذا الوطن لا تتعـين بالمشاهدة المباشرة ، كما يحدث ذلك في مسقط الرأس . وذلك لأن الفـرد لا يكون قـد شاهد ـ عادة ـ إلا قسماً صغيراً من الوطن ، ولا يكون قد عاشر الا فئـة قليلة من أبناء الأمة . ولذلك نستطيع أن نقول : ان الروابط التي تربط المرء بوطنه وبأمته ، تنشأ من عوامل فكرية ومعنوية ، أكثر مما تنشأ من أسباب حسّية ومادية .

إن العوامل التي تربط الافراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم الى بعض ـ فتؤلف منهم أمة واحدة ـ كثيرة ومتنوعة جداً : الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشـأ ، والاشتراك في اللغة والتاريخ ، والتشابه في العواطف والعوائد ، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحـال وآمال المستقبـل . . . كلها من جملة هـذه الروابط المعنـوية التي تـولـد التقـارب والتعاطف ، وتكون الأمم والأوطان .

ـ ٤ ـ

لقد شبه بعض المفكرين المجتمعات البشرية ، منذ القرون الأولى ، بالعضويات الحيوانية والنباتية . ولكن الميل الى هذا التشبيه تقوّى بوجه خاص ، حينما اكتشف علماء الطبيعة حقيقة العضويات الحيوانية والنباتية ، فقد عرفوا أن العضويات بأجمعها تتألف من أنسجـة ، وأن الانسجة تتكـون من عناصـر حية ، تعـرف باسم الخـلايـا Cellules أو المصورات Plastides ، وان كل واحدة من هذه العناصر التي تؤلف العضوية ، حية في حد ذاتها ، تتغذى فتنمو ، وتتكاثر فتموت ، مستقلة عن غيرها .

وقد زاد اكتشاف هذه الحقيقة وجوه الشبه بين العضويات والمجتمعات ، لأنه برهن على أن كل عضوية من العضويات الحيوانية والنباتية أيضاً ، انما هي نوع من المجتمع ، لأنها بمثابة مجتمع مؤلف من خلايا أو مصورات . فاشتد النقاش لذلك بين العلماء الذين يشبهون المجتمعات بالعضوية وبين الذين يعارضون هذا التشبيه . وقد حاول كل فريق أن يظهر وجوه الشبه أو وجوه الخلاف بين المجتمعات والعضويات حسب نزعته الفكرية .

إنني لا أرى مجالاً ـ ولا ضرورة ـ الى بحث هذه المسألة ومناقشتها هنا بتفاصيلها . غير اني أقول : ان المجتمعات البشرية تختلف عن العضويات الحيوانية اختلافاً أساسياً ـ بالرغم من كثرة وجوه الشبه بينها ـ وذلك لأن ارتباط الخلايا في العضويات ارتباط مادي ، يخضع لقوانين المادة من حيث الزمان والمكان ، في حين أن ارتباط الافراد في المجتمعات انما هو ارتباط معنوي ، لا يخضع لقوانين الزمان والمكان والمادة .

فإن الخلية الواحدة تكـون جزءاً من عضـوية واحـدة ، ولا يمكنها أن تنتسب الى

عضويتين مختلفتين في وقت واحد . غير أن الفرد الواحد في الحياة الاجتماعية ، قد ينتسب الى مجتمعين مختلفين في وقت واحد ، لأن الرابطة التي تربط أفراد البشر ـ بعضهم ببعض ـ في المجتمعات ، لم تكن من نوع الروابط المادية ، فلا تتبع قوانين المادة ، ولا تتقيد بقيود التحيّز وعدم التنافذ .

هذه هي ـ في نظري أهم الفوارق التي تميّز المجتمعات البشرية من العضريات الحيوانية والنباتية .

فكل فرد من أفراد البشر ـ ينتسب عادة الى عدة جماعات ـ في وقت واحد . وذلك لأن كل نوع من أنواع الروابط الاجتماعية ، يؤلف جماعة من نوع خاص ، ويدخل الفرد في تلك الجماعة . وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ـ من الأسرة والمهنة واللغة ، الى الميول الفنية ، والاعتقادات الدينية ، والاتجاهات المذهبية ـ يولد رابطة خاصة ، تربط الافراد بعضهم ببعض ، وتكوّن منهم جماعات ومجتمعات متنوعة ، بعضها متلائم وبعضها متنافر ، بعضها تابع وبعضها متبوع .

وكل فرد من الأفراد ، يرتبط بجماعات من أبناء نوعه بعدة أنواع من هذه الروابط المعنوية ، فينتسب الى عدة أنواع من هذه الجماعات والمجتمعات . وهذه الروابط المتنوعة تتجاذب مشاعر الفرد وميوله ، وتجعله يسير وكأنه مدفوع بدوافع عديدة ، ومجذوب بجواذب متنوعة .

غير أن قوة كل من أنواع هذه الروابط وقيمتها ، تختلف بين فرد وفرد ، كما تختلف بين حال وحال ، وبين عهد وعهد . . .

ولكنا اذا لاحظنا أنواع الروابط التي تكون الجماعات السياسية ـ على وجه أخص ـ نجد أن أقواها وأفعلها ، هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ . . . وهي التي تتغلب على كل ما سواها، وتستتبعها استتباعاً . . .

عوامل القومية(٢)

إذا ألقينا نظرة عامة على الانقلابات السياسية التي حدثت منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وتحرينا أهم العوامل التي أدت الى تلك الانقلابات ، نجد أنها تتلخص في عبارة وجيزة ، هي : مبدأ القوميات .

فإن النزعات القومية التي كانت ضئيلة الأثر وقليلة الظهور حتى ذلك التاريخ ، أخذت تتقوى بعد ذلك بسرعة هائلة ، وأصبحت تفرض نفسها على اتجاهات السياسة ، وتسيطر على سير التاريخ . فكثير من الأمم المغلوبة على أمرها أفاقت من سباتها ، وأخذت تشعر بكيانها الخاص ، وصارت تسعى الى تدعيم هذا الكيان بالحكم الذاتي أولاً ، وبالاستقلال التام ثانياً . في حين أن السلطنات التي كانت قائمة قبلاً ، أخذت تتقلص شيئاً فشيئاً ، الى أن اندرس معظمها ، تاركاً محله لدول قومية عديدة . وبدأت هذه القوميات تختلف وتتنازع ، وظهرت من جرّاء ذلك مسائل الاقليات وما يتبعها من المشاكل والاختلافات .

واذا استعرضنا سير هذه الانقلابات ، وجدنا أن جماعات من الناس اعتبرت نفسها من قومية واحدة ، وأخذ أفرادها يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة ، متميزة من الأمم الأخرى ، وصاروا ينزعون الى الاستقلال عنها .

فيجدر بنا أن نتساءل : ما هي العوامل التي تجعل بعض الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة ، متميزون من أبناء الامم الأخرى ؟ وبتعبير أقصر : ما هي العناصر التي تكون الأمم ، والعوامل التي تميّز بعضها من بعض ؟

---

(٢) من محاضرة أُلقيت في نادي المعلمين في بغداد سنة ١٩٢٨

إن الأجوبة التي أعطيت على هذه الاسئلة اختلفت كثيراً باختلاف الباحثين . ذلك لأن هذه الأبحاث لم تبق في نطاق المسائل العلمية البحت ، بل تأثرت كثيراً بنزعات السياسة ومطاليبها .

فإن كل جواب على هذه الاسئلة لا بد من أن يؤيد أو يفند احدى النظريات السياسية ، ولا بد من أن يأتي موافقاً أو مخالفاً لمطاليب أمة من الأمم أو دولة من الدول .

ولذلك نجد أن العلماء والباحثين اختلفوا في هذا الأمر اختلافاً كبيراً ، بسبب اختلاف نزعات الأمم التي ينتمون اليها ، حتى اننا كثيراً ما نجد بينهم من لم يتورع عن جمع المتناقضات أيضاً ، فانهم يقولون بنظرية في بعض القضايا ، وبنظرية مخالفة لها في قضايا أخرى مماثلة لها ، وذلك حسب ما تقتضيه منافع الدول التي ينتسبون اليها .

فيجدر بنا أن ندرس هذه المسائل بحذر شديد ، وأن نناقش الآراء والنظريات التي حامت حولها بانتباه تام .

- ١ -

فلنبحث اذن : ما هي العناصر التي تكون القومية وتؤلف الأمة ؟

إن أول ما يخطر على البال ـ ويلفت النظر ـ في هذا الصدد ، هو وحدة الأصل والمنشأ .

يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد ، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الاشقاء المنحدرين من صلب أب واحد . ولذلك نجدهم يكررون في كل مناسبة كثيراً من التعبيرات الدالة على هذا الزعم ، كقولهم : « اجدادنا ، آباؤنا ، اخواننا . . » .

غير أن هذا الظن لا يستند الى أساس صحيح . لأن جميع الابحاث العلمية ـ المستمدة من حقائق التاريخ ومن مكتشفات علم الانسان ومكتسبات علم الاقوام ـ لا تترك مجالاً للشك في انه لا يوجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحد فعلاً ، ولا توجد على الارض أمة خالصة الدم تماماً .

فإن جميع الأمم التي نعرفها الآن قد تكونت من تداخل عشرات العروق والاجناس ، في مختلف أدوار التاريخ ، حتى أن الاجناس التي عاشت في القرون المتقدمة على أدوار التاريخ ، كانت أيضاً متخالطة ومتداخلة جداً .

ونستطيع أن نقول بكل جزم وتأكيد : ان وحدة الأصل والدم في الأمم انما هي من الأوهام التي استولت على العقول والاذهان ، من غير ان تستند الى دليل أو برهان .

لا الانكليز ولا الروس ، ولا الالمان ، ولا البلغار . . . كانوا متجانسين من حيث الاصل والنسل . بل ان كل واحدة من هذه الأمم انما تكونت من تداخل وتمازج عشرات الاقوام . حتى الأمة الفرنسية نفسها لا تنحدر من أصل واحد . هذه الأمة التي كانت أسبق الأمم الاوروبية الى تكوين وحدة سياسية قومية ، حتى هذه الأمة نفسها انما تكونت من اختلاط عدد كبير من الاقوام والاجناس . وقد تبيّن من الابحاث العلميـة التي لا مجال للشك فيها أن عدد الأقوام التي كونت فرنسيي اليوم يتجاوز الستين . ولهذا فإننا اذا قارنا سكان شمال فرنسا بسكان جنوبها ـ من حيث الأوصاف البدنية والخصـائص الجنسية ـ وجدنا بينهم بوناً شاسعاً جداً . فإن مشابهة أهالي بعض المقاطعات الشمالية ـ كلبره تاني والنورماندي مثلاً ـ للانكليز والالمان ، أكبر بكثير من مشابهتهم لأهالي سائر المقاطعات ، وبخاصة أهالي المقاطعات الجنوبية .

إن كل الابحاث العلمية المتعلقة بالأزمنة التاريخية والقبتاريخية Préhistorique تدل دلالة قاطعة على أن تداخل الأقوام والاجناس استمر بدون انقطاع في جميع أقسام فرنسا منذ أقدم الأزمنة . فأصبح الآن من الصعوبة بمكان تعيين « المنبع الأصلي » الذي ترجع اليه القومية الفرنسية وتنحدر منه . وقد اختلف علماء التاريخ فيما بينهم اختلافاً كبيـراً حينما حاولوا تعيين هذا المنبع الأصلي : ما هو الشعب الذي يستحق أن ينعت باسم « اجداد الفرنسيين الحاليين ؟ » هل هم الغاليون ؟ أم هم الرومان ؟ أم هم الفرنك ؟ ان كل واحد من هذه الحلول الثلاثـة صار أسـاساً لنـظرية من نـظريات التـاريخ : لقـد ظل العلماء والمفكرون يتناقشون في ذلك مدة طويلة الى أن عرفوا ما في هذا النقاش من العبث : ان جميع هؤلاء الأقوام ـ وعشرات أمثالهم ـ قد اشتركوا في تكوين الأمة الفرنسية ، فاذا ما بحثنا عن أصل الفرنسيين يجب أن نبحث عن العنصر الذي كـان أشد تـأثيراً في هـذا التكوين ، من الوجهة المعنوية ، لا من الوجهة المادية . ويجب أن نعلم العلم اليقين بأن الفرنسيين اذا انتسبوا الى الاقوام اللاتينية ، فانما ينتسبون اليهم من وجهة اللغة والثقافة ، لا من جهة الأصل والدم . وذلك لأن من الحقائق الثابتة علمياً أن دم اللاتين والرومان في فرنسا أقل بكثير من دماء الجرمان .

وهذا هو الحال في جميع الأمم ، فـانها جميعاً مختلطة ومتـداخلة من حيث الأصل والدم . . .

انني أشبه الأمم من هذه الوجهة بالأنهر العظيمة . فمن المعلوم أن كل نهر من الأنهر تجري فيه مياه أتت من منابع ومصادر وروافد مختلفة . والأنهر الكبيرة تكون كثيرة المنابع وعديدة الروافد بوجه عام ، واذا ما بحثنا عن منبع نهر من الانهر، فانما نفعل ذلك بالنسبة الى ما هو الغالب والاساسي ، ولا نعني بذلك أن جميع مياه النهر تأتي من منبع واحد فعلاً .

هذا نهر دجلة ، مثلاً : من منا يستطيع أن ينكر أن هذه المياه آتية من نواح مختلفة جداً ! كلنا نعلم أن قطرات هذه المياه قد تكون متأتية من العيون التي تنبع من تحت التراب أو من بين الصخور . وقد تكون متولدة من ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال ، وقد تكون آتية من السيول المتكونة من هطول الأمطار ، وكل ذلك قد يكون من جرّاء ما حدث في أعالي الزاب ، أو على سفوح حمرين ، أو في سهول الموصل ، أو على جبال زاخو ، أو في ديار بكر . . . ومهما كان الأمر ، فإن جميع هذه المياه المختلفة المصدر تسير الآن جنباً الى جنب في مجرى واحد ، وتكوّن هذا النهر الذي يجري أمامنا . اننا نسمي هذه المياه باسم مياه دجلة ، من غير أن نفكر بمنشأها الخاص ، أو أن نتساءل عن طول المدة التي مضت منذ التحاقها بهذا المجرى الطويل ، وانتسابها الى هذا النهر العظيم .

إن أحوال الأمم ومنابعها تشبه ذلك شبهاً كبيراً . إن الانكليزي المثقف لا يعرف ما اذا كان بينه وبين شكسبير أو نيونن أو ميلتون رابطة أصل ونسب ، ومع ذلك فانه يعتبر هؤلاء اجداداً له وأسلافاً ، ويفتخر بهم أكثر مما يفتخر بأجداده الحقيقيين .

وكذلك الفرنسي المثقف : فانه لا يتساءل عمّا اذا كان يجري في عروقه حقيقة شيء من دم شارلمان أو راسين أو فولتير ، ومع هذا فهو يعتبر هؤلاء كلهم أجداداً له وأسلافاً ، ويعتز بهم أكثر مما يعتز ببني أسرته الاقربين .

فيجدر بنا نحن العرب أيضاً أن نحذو حذو هؤلاء : قد لا نعرف ما اذا كان يربطنا شيء من أواصر القرابة والنسب بسعد بن أبي وقاص مثلاً ، أو خالد بن الوليد ، أو ابن الهيثم ، أو أبي العلاء المعري . ولكنا مع ذلك يجب أن ننتسب الى هؤلاء والى أمثالهم ، ونعتبرهم أجدادنا المعنويين ، ونفتخر بهم أكثر مما نعتز ونفتخر بأبناء أسرنا الحقيقيين .

إن المهم في القرابة والنسب ليس رابطة الدم في حد ذاتها ، بل هو الاعتقاد بها والنشوء عليها . وهذا هو الواقع ، بالنسبة الى الافراد والجماعات على حدٍ سواء : ان الاعتقاد بوحدة الأصل ـ والشعور بالقرابة ـ يعمل عملاً هاماً في تكوين الأمم ، سواء أكان ذلك موافقاً للحقيقة أم مخالفاً لها ، لأن القرابة بين أفراد الأمم تكون قرابة نفسانية معنوية ، أكثر مما تكون جسمانية ومادية .

ـ ٢ ـ

لقد قررنا أن القرابة في الامم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية .

ومن البديهي أنه لا يجوز لنا أن نكتفي بتقرير هذه الحقيقة ، بل يجب علينا أن نسعى

لتعليلها أيضاً : يجب علينا أن نبحث في الوقت نفسه عن كيفية تولد هذه القرابة المعنوية ، وأن نتحرى الاسباب الموجبة لها ، والعوامل المؤدية اليها .

إن هذه الأبحاث والتحريات توصلنا الى الحقيقة التالية :

إن أهم العوامل التي تؤدي الى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة ، هي اللغة والتاريخ ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل انما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة والاشتراك في التاريخ .

فلندرس تأثير كل واحد من هذين العاملين الهامين بشيء من التفصيل .

اللغـة : هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس . لأنها أولاً ، واسطة التفاهم بين الأفراد ، ثم هي فضلاً عن ذلك ، آلة التفكير . لأن التفكير - حسب تعبير أحد الحكماء - ما هو الا تكلم باطني ، والتكلم انما هو نوع من التفكير الجهري . وأخيراً ، ان اللغة هي واسطة لنقل الافكار والمكتسبات من الآباء الى الابناء ، ومن الأجداد الى الاحفاد ، ومن الاسلاف الى الاخلاف .

وهذا ، واللغة التي ينشأ عليها الانسان ، تكيف تفكيره بكيفيات خاصة ، كما أنها تؤثر في عواطفه أيضاً تأثيراً عميقاً ، فإن اللغة التي يسمعها المرء منذ صغره ، اللغة التي تخاطبه بها أمه منذ أوائل حياته الواعية ، لغة التنويمات والأغاني التي تهز مشاعره منذ طفولته ، تؤثر بطبيعة الحال تأثيراً عميقاً في تكوينه العاطفي . ولذلك تجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في التفكير وفي الشعور ، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، ونستطيع أن نقول لذلك : انها تكون أقوى الروابط التي تربط الافراد بالجماعات .

وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم ، فمن الطبيعي ان نجد مجموع الافراد الذين يشتركون في اللغة ، يتقاربون أكثر من غيرهم ، ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم ، ويتميّزون عمّن عداهم ، فيؤلفون بذلك أمة متميزة عن الأمم الأخرى .

ونستطيع أن نقول لذلك : ان الأمم يتميز بعضها عن بعض - في الدرجة الأولى - بلغتها ، وان حياة الأمم تقوم - قبل كل شيء - على لغاتها .

واذا أضاعت أمة من الأمم لغتها ، وصارت تتكلم بلغة اخرى ، تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الجديدة .

كثيراً ما يرينا التاريخ ، أن بعض الامم تستولي على أمة أخرى ، وتخضعها لارادتها ، وتسيّر شؤونها كما تشاء . إن هذا الاستيلاء يفقد الأمة المغلوبة استقلالها ، ولكنه

لا يمس كيانها ، ما دامت الأمة المذكورة محافظة على لغتها الخاصة بها ، وما دامت متميّزة من الأمة المستولية عليها بهذه اللغة الخاصة . وقد قال أحد المفكرين : « ان الامة المحكومة التي تحافظ على لغتها ، تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح سجنه » . انها تستطيع أن تفلت من سجنها هذا ، فتسترد حريتها واستقلالها في يوم من الايام ، لأنها تبقى حية بحياة لغتها ، وتظل محافظة على كيانها كأمة ، برغم أنها تكون قد فقدت شخصيتها كدولة . ولكن الامة المذكورة اذا فقدت ـ بمرور الزمان ـ لغتها الخاصة واقتبست وتبنت لغة الدولة المستولية عليها ، تكون قد فقدت الحياة بتاتاً ، واندمجت في كيان الأمة التي أعطتها لغتها الجديدة ، فلا يبقى ثمة أمل لعودتها إلى الحرية والاستقلال .

يتبينّ من ذلك كله : أن اللغة هي روح الامة وحياتها ، انها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري ، وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها .

أما التاريخ فهو بمثابة شعور الامة وذاكرتها . فإن كل أمة من الامم ، انما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص .

عندما أقول التاريخ ، لا أقصد بذلك التاريخ المدون في الكتب ، ـ التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات ـ ، بل أقصد بذلك التاريخ الحي في النفوس ، الشائع في الأذهان ، المستولي على التقاليد .

إن وحدة هذا التاريخ تولد تقارباً في العواطف والنزعات ، انها تؤدي الى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة وفي ذكريات المصائب الماضية ، والى تشابه في أماني النهوض وآمال المستقبل .

ولذلك نستطيع أن نقول : ان الذكريات التاريخية تقرّب النفوس ، وتكوِّن بينها نوعاً من القرابة المعنوية . وتكون هذه القرابة المعنوية أشد تأثيراً من القرابة المادية بدرجات .

والأمة المحكومة التي تنسى تاريخها ، تكون قد فقدت شعورها ووعيها ، وهذا الشعور والوعي ، لا يعود اليها الا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود اليه .

ولهذا السبب ، نجد أن الأمم المستولية والحاكمة ، تعمد قبل كل شيء الى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة ، وتبذل ما استطاعت من الجهود لأجل اقصاء ذلك التاريخ عن الأذهان . إنها تسعى ـ من جهة ـ الى تشويه هذا التاريخ لأجل تجريده من قوة الجذب والتأثير ، كما تعمل ـ من جهة أخرى ـ على إلهاء الاذهان بوقائع تاريخها هي وبهر الانظار بشعشعة التاريخ المذكور .

وأما اليقظات القومية ، بعد عهود الحكم الأجنبي ، فتبدأ عادة ـ بعكس ذلك ـ

بتذكر التاريخ القومي وبالاهتمام به اهتماماً خاصاً .

يتبينّ من كل ما تقدم : ان اللغة والتاريخ ، هما العاملان الاصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات . والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت في حالة السبات ، وأن لم تفقد الحياة . وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة الى تاريخها القومي وبالاهتمام به اهتماماً فعلياً ، ولكنها اذا ما فقدت لغتها ، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات ، فلا يبقى سبيل الى عودتها الى الحياة ، فضلاً عن استعادتها الوعي والشعور .

- ٣ -

ولكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم ، وتميّز بعضها من بعض لا تنحصر في اللغة والتاريخ ؛ بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر في ذلك تأثيراً واضحاً ؛ فتقوي تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً ، وتضعف ذلك التأثير طوراً .

إن أهم هذه العوامل ، هو الدين .

لأن الدين يولد نوعاً من « الوحدة » في شعور الأفراد الذين ينتمون اليه ، ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً ، فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ .

غير أن تأثير الدين في تسيير السياسة والتاريخ وتكوين القومية والوطنية ـ على هذا المنوال ـ لا يجري على وتيرة واحدة في كل الاحيان . بل ان هذا التأثير يختلف باختلاف الاديان من جهة ، وباختلاف العصور والادوار من جهة أخرى .

ونستطيع أن نقول لذلك : ان علاقة الأديان بالقوميات من المسائل المعضلة التي تحتاج الى بحث عميق وتحليل دقيق .

يجب علينا أن نلاحظ في هذا الصدد ـ قبل كل شيء ـ ان الأديان تنقسم من الوجهة الاجتماعية الى صنفين أساسيين : الأديان القومية ، والاديان العالمية .

ذلك لأن بعض الأديان تنحصر بقوم أو شعب أو مدينة . ومعتنقو هذه الأديان يعتقدون بإله خاص بهم دون غيرهم ، ويزعمون انه يحميهم دون سواهم . ولذلك فأنهم لا يسعون الى نشر دينهم ومعتقدهم بين الانام ، بل بعكس ذلك يسدون أبواب هذا الدين في وجوه سائر الأقوام . ولا حاجة الى القول أن أمثال هذه الديانات الخاصة ، تكون بمثابة أديان قومية بكل معنى الكلمة . ومن الطبيعي أن الرابطة التي تتولد منها تنضم الى تأثير

اللغة والتاريخ ، وتقوي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض . ولذلك كله نجد أن الحياة الدينية لدى تلك الاقوام ، لا تنفصم عن الحياة السياسية أبداً ، فتزيد أفراد القوم ترابطاً على ترابطهم وتماسكاً على تماسكهم . فنستطيع أن نقول أن الروابط الدينية تكون في هؤلاء الاقوام من عناصر القومية الاساسية .

من المعلوم أن الديانة الاسرائيلية ، وكثيراً من الأديان الوثنية القديمة كانت من هذا القبيل .

ولكن الاحوال تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، في الأديان العالمية ، لأن هذه الاديان لا تختص بشعب من الشعوب أو أمة من الامم ، بل بعكس ذلك تفتح أبوابها لجميع الاقوام ، وتدعو الى اعتناقها جميع الانام ، على اختلاف لغاتهم وأجناسهم . إن هذه الأديان إنما تسعى الى الانتشار بين أكبر عدد ممكن من الافراد والجماعات ، وتميل الى ايجاد رابطة أعم من روابط اللغة والتاريخ ، وتخلق بذلك نوعاً من الجو الأممي الذي يحيط بكثير من الاقطار ويغمر كثيراً من الأقوام .

ومن البديهي أن أصحاب هذا الصنف من الديانات كثيراً ما يميلون الى معارضة القوميات .

ومن المعلوم أن الديانة المسيحية والديانة الاسلامية من جملة هذه الأديان العالمية التي لعبت دوراً هاماً في سير التاريخ .

قلنا أن هذه الديانات تسعى الى خلق نوع من الجو الأممي الذي يجمع مختلف الاقوام ويغمرهم غمراً . ولكنه ، يجب علينا أن نتساءل : هل نجحت الأديان العالمية التي ذكرناها ، فيما كانت تنزع اليه في هذا الصدد ؟ وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الأخرى ؟

إن التاريخ يشهد على عكس ذلك تماماً : ان الأديان العالمية لم تنجح في ذلك ، الا داخل نطاق محدود ، والى مدة قصيرة جداً . إنها لم تستطع أن تمزج الاقوام مزجاً حقيقياً ، وأن تزيل الفوارق التي تميّز بعض أولئك الاقوام من بعض تماماً ، الا بقدر ما نجحت في نشر لغة من اللغات ، وبقدر ما أوجدت من التبدل في حدود القوميات .

فالديانة المسيحية مثلاً ، حاولت أن تشمل العالم بأجمعه ، ومع هذا ، فإنها لم تحل دون افتراق المسيحيين أنفسهم الى أمم ودول عديدة ، ودون تخاصم وتحارب هذه الأمم والدول فيما بينها .

وكذلك الأمر في الاسلام : من المعلوم أن الدعوة الاسلامية أيضاً سعت الى جمع الانام تحت راية القرآن ، ولكن التاريخ يشهد على أن المسلمين أنفسهم لم يبقوا متحدين

تماماً ، الا لمدة محدودة جداً ، وأن انتشار الاسلام لم يحل دون تفرق المسلمين الى أمم ودول ، ودون حدوث منازعات ومخاصمات بين الدول الاسلامية نفسها :

ذلك أن المبادىء النظرية شيء ، والحقائق الراهنة شيء آخر ، وما يرد في التعاليم الدينية شيء ، وما يتحقق في الحياة الاجتماعية شيء آخر . والأديان العالمية لم تستطع أن توحد القوميات ، حتى في الادوار التي وصلت سلطتها وسيطرتها خلالها الى أقصى الدرجات .

ولا غرابة في ذلك أبداً : لأن الاديان نفسها كثيراً ما تتفرق الى مذاهب متنوعة . والقوميات المختلفة كثيراً ما تجد في الاختلافات المذهبية سبيلاً للمحافظة على كيانها ، على الرغم من الجو الأممي الذي تخلقه الأديان العالمية ، وذلك عن طريق اعتناق مذهب جديد ، وحمل راية مذهب خاص .

زد على ذلك أن الدين ولو كان أمراً باطنياً في حد ذاته ، فإنه لا يخلو من المظاهر الخارجية ، ولا يستغني عن الوسائط المادية ، فيخضع لذلك لقوانين الحياة الاجتماعية ، كما يتضح من التفاصيل التالية :

أولاً : ان التعاليم الدينية تستمد قوتها من كتاب خاص ، وهذا الكتاب إنما يكون بلغة من اللغات .

ثانياً : هذه التعاليم تفرض بعض الطقوس والصلوات ، وهذه أيضاً إنما تكون بلغة من اللغات .

ثالثاً : ان الأديان تتطلب تشييد بعض المعابد والمباني لاقامة شعائر الدين . وهذه المعابد لا بد من أن يتولى شؤونها بعض الرجال ، وهؤلاء الرجال انما يتكلمون بلغة من اللغات ، وينتسبون الى أمة من الأمم .

يظهر من ذلك كله أن للدين علاقة قوية باللغة : فإن كل دين من الأديان يقوم على لغة ، ويعمل بطبيعته على نشر تلك اللغة . إن اللاتينية انتشرت بواسطة الديانة المسيحية أكثر مما انتشرت بواسطة الفتوحات الرومانية ، واللغة العربية انتشرت بواسطة الدين الاسلامي ، أكثر مما انتشرت بحكم السياسة والادارة .

ومما يظهر علاقة الدين باللغة بوضوح أعظم ، أن اللغة عندما تأخذ في التلاشي وتسير نحو الاندراس ، ـ تاركة محلها للغة عامية متفرعة منها ، أو للغة أجنبية متغلبة عليها ـ تجد لنفسها ملجأ أخيراً في المعابد وفي الطقوس الدينية والصلوات . فإن اللغة اللاتينية مثلاً ، ما تزال تردد وترتل في الكنائس الكاثوليكية خلال الطقوس الدينية ، مع

أنها قد خرجت عن نطاق تخاطب الناس ، ودخلت في عداد اللغات الميتة منذ عدة قرون ، وكذلك الأمر في اللغة السريانية .

ونستطيع أن نقول لذلك : أن الدين اذا اتحد مع لغة من اللغات قوّى جذور تلك اللغة وحافظ على كيانها ، أكثر من جميع العوامل الاجتماعية الأخرى .

ومما يلاحظ في سير الوقائع التاريخية أن الديانة عندما تتفرع الى مذاهب عديدة ، قد تربط مقدرات بعض هذه المذاهب ببعض اللغات بوجه خاص . وتنتشر اللغة المذكورة مع انتشار المذهب الذي تبناها ،وتتوسع سيطرة الامة التي كانت الصاحبة الاصلية للغة المذكورة بفضل هذا الانتشار . فإن الامبراطورية الرومانية ـ مثلاً ـ عندما انشطرت الى غربية وشرقية ، تمذهب كل شطر منها بمذهب مسيحي خاص ، وارتبط بلغة خاصة : ان الامبراطورية الغربية صارت حامية للكاثوليكية ، واتخذت اللاتينية لغة لسياستها ولديانتها ، بينما الامبراطورية الشرقية تبنت المذهب الارثوذكسي ، واتخذت اليونانية لغة لسياستها ولديانتها ، فتقوى نفوذ اللاتينية بفضل الكاثوليكية ، كما أن نفوذ اليونانية انتشر وتقوى بفضل الارثوذكسية .

وقد حدث ما يشبه ذلك عند ظهور المذهب البروتستانتي أيضاً : فإن الاصلاح الديني الذي بشر به ودعا اليه « لوثر » الشهير ، لم يكتف بإحداث انقلاب مذهبي فحسب ، بل أوجد ـ بجانب هذا الانقلاب المذهبي ـ انقلاباً سياسياً واجتماعياً خطيراً . لأن الكاثوليكية كانت أبقت الانجيل باللغة اللاتينية وحدها ، وجعلت اللاتينية لغة الصلوات كلها . ولكن لوثر حينما ثار على الكاثوليكية ـ وعلى البابوية التي تمثلها ـ قائلاً بضرورة ترجمة الانجيل الى اللغات المحلية ليتمكن الناس من قراءته وفهمه مباشرة ، قد أحدث انقلاباً قومياً في ظل الانقلاب الديني الذي جهر به ودعا اليه . لأنه وضع بذلك حداً لسيطرة اللغة اللاتينية ـ التي كانت قائمة في أوروبا الغربية على معنوية الانجيل وسلطته ـ ، كما أنه قضى قضاء مبرماً على نفوذ الأمم اللاتينية ، ذلك النفوذ الذي كان يستمد قوته من لغة الصلوات الدينية ، وطبيعة التشكيلات البابوية ، وفسح بكل ذلك مجالاً واسعاً لجعل المذاهب والكنائس قومية بكل معنى الكلمة .

ومما يبرهن على ذلك برهنة قطعية ، ما حدث فعلاً بعد الحروب المذهبية التي استمرت عقوداً طويلة من السنين : فإن الأمم التي كانت تتكلم باللغات اللاتينية ، حافظت على كثلكتها ، وأعرضت عن المذهب البروتستانتي الجديد . في حين أن الأمم الجرمانية والانكلوساكسونية أقبلت ـ بعكس ذلك ـ على المذهب الجديد اقبالاً عظيماً ، ولم يشذ عن هذا التيار من الطرفين الا جماعات قليلة جداً .

إن مفكري الالمان سعوا لاظهار هذا العامل القومي الذي لعب دوراً هاماً في سير

الاصلاح الديني ، حتى أن المفكر الشهير « فيخته » قال في احدى خطبه الحماسية على لسان رجال الاصلاح الديني ، ما مؤداه : « اننا لم نكن ندرك عندئذٍ الدافع الحقيقي الذي كان يدفعنا في كفاحنا . ولكن الآن صرنا نفهم بكل وضوح : « ان الثورة الدينية التي قمنا بها ، انما كانت صفحة من صفحات مقاومتنا لسيطرة الامبراطورية الرومانية ، ومحاولة جديدة للتخلص من تلك السيطرة ، والاستقلال عنها . . . » .

وعلى كل حال ، فمما لا يمكن أن يختلف فيه اثنان ، أن الكنائس البروتستانتية في جميع البلاد الاوروبية أخذت شكلاً قومياً تماماً .

هذا وقد حدث حادث مماثل لذلك في وقت أقرب من زماننا هذا ، وفي بلاد أقرب الى بلادنا هذه ، أعني بذلك ما حدث في البلقان من النزاع الكنائسي في أواسط القرن التاسع عشر : من المعلوم أن المذهب الارثوذكسي كان اعتمد على النص اليوناني من الانجيل ، وذلك أدى الى اصطباغ الكنيسة الارثوذكسية بصبغة يونانية . وهذه الصبغة تقوت بوجه خاص في بلاد البلقان ، وصارت الكنيسة اليونانية تسيطر على الامم المسيحية في ماكدونيا وبلغاريا سيطرة معنوية شديدة ، من الوجهة الدينية ، على الرغم من انها كانت هي بدورها تحت سيطرة الدولة العثمانية من الوجهة السياسية . وحينما أخذ البلغار ينهضون من رقادهم ويتطلعون الى الاستقلال ، وجدوا أنفسهم تحت سيطرتين مختلفتين : سيطرة الدولة العثمانية السياسية ، وسيطرة الكنيسة اليونانية الدينية . ولاحظوا : أن سيطرة الدولة العثمانية ما كانت تمس كيانهم القومي ، لأنها ما كانت تتعرض الى لغتهم الخاصة ، في حين أن سيطرة الكنيسة اليونانية كانت تمس كيانهم القومي مباشرة ، لأنها كانت تنشر اللغة اليونانية بينهم ، كما انها كانت ترسل القسس اليونانيين الى أحيائهم وتدخلهم الى صميم عائلاتهم . وذلك كان قد أدى الى « يوننة » قسم غير قليل منهم . ولهذا السبب بدأت النهضة القومية البلغارية ، أولاً بالقيام ضد الكنيسة اليونانية ، وضد رجالها اليونانيين ، وبمطالبة ملحة لتحويل لغة الصلوات من اليونانية الى البلغارية ، ولتولية شؤون الكنائس والمراتب الدينية رجالاً من البلغار أنفسهم ، عوضاً عن اليونانيين الذين كانوا قد احتكروا تلك المراتب احتكاراً .

قام البلغار يطالبون بذلك مطالبة عنيفة ، وحينما رأوا اصرار البطريركية اليونانية على ابقاء ما كان على ما كان ، لم يترددوا في الانفصال عنها ، وأوجدوا كنيسة قومية قائمة بنفسها عرفت باسم « الاكسارخية » وذلك بالرغم من « الحرم » الذي أعلنته البطريركية المذكورة ضد الكنيسة الجديدة .

إن البلغار وضعوا بذلك حداً للخلافات التي كانت تظهر في بلادهم بين السياسة القومية وبين السياسة الدينية ، وضمنوا استقلالهم القومي عن الكنيسة اليونانية ، قبل أن

يتموا استقلالهم السياسي عن الدولة العثمانية .

اني اعتقد أن هذه الامثلة كافية لاظهار قوة النزعات القومية تجاه الروابط الدينية ، وللبرهنة على أن الاديان العالمية نفسها لا تستطيع أن تقضي على النزعات القومية .

هذا ، ولا بد لي من أن أشير الى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لاتمام بحثي في علاقة الديانة بالقومية : من المعلوم أن الأمم الحاكمة تسعى لنشر لغتها بين أفراد الامم المحكومة لها ، ومن البديهي أن انتشار لغة الحاكمين بين المحكومين قد يؤدي الى تمثيل هؤلاء تمثيلاً تاماً .

إن الدين يلعب دوراً هاماً خلال النضال الذي يحدث ـ على هذا المنوال ـ بين لغة الحاكمين وبين لغة المحكومين أيضاً : فإذا كان الحاكم والمحكوم من دين واحد ، يكون التمثيل أسهل ، ويتم بسرعة أعظم ، متى تهيأت له سائر الدوافع والاسباب : اما اذا اختلف الحاكم عن المحكوم في الدين ـ زيادة على اختلافه في اللغة ـ فيكون التمثيل أصعب من ذلك بكثير .

إن الفرنسيين الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب البروتستانتي ثم هاجروا الى المانيا في عهود الاضطهادات الدينية ، اندمجوا بالالمان اندماجاً تاماً ، ولم يحافظوا على شيء من مميزاتهم القوْمية أبداً .

والاتراك والتتر والآسيويون الذين عاشوا تحت حكم القيصرية الروسية حافظوا على لغتهم وقوميتهم بفضل اختلاف ديانتهم عن ديانة الحاكمين عليهم ، غير أن من كان قد تنصَّر منهم لم يلبث طويلاً حتى اندمج بالروس اندماجاً أدى الى « تروّس » تام .

*

يتبيّن من كل ما تقدم أن الروابط الدينية لا تخلو من التأثير في الروابط القومية ، وتأثيرها هذا قد ينضم الى تأثير اللغة والتاريخ ، فيقوي الروابط القومية ، وقد يخالف التأثير المذكور فيضعف تلك الروابط .

ومهما كان الأمر ، فإن الرابطة الدينية وحدها لا تكفي لتكوين القومية ، كما أن تأثيرها في تسيير السياسة ، لا يبقى متغلباً على تأثير اللغة والتاريخ .

إن هذا التأثير يشتد أو يتراخى ، يتقوّى أو يتلاشى ، حسب تطور علاقة الدين باللغة ، ويبقى أمراً ثانوياً في تكوين القوميات بالنسبة الى تأثير اللغة والتاريخ .

ـ ٤ ـ

إننا نستطيع أن نلخص أبحاثنا السابقة بما يلي :

إن العاملين الاساسيين في تكوين القومية هما اللغة والتاريخ : ونستطيع أن نضيف الى ذلك ما يأتي :

لا يتغلب عامل من العوامل الاجتماعية على تأثير اللغة والتاريخ في هذا المضمار ، سوى عامل الاتصال الجغرافي ، لأن فقدان الاتصال الجغرافي قد يؤدي الى بقاء اجزاء الأمة الواحدة منفصلاً بعضها عن بعض ، رغم اتحادها في اللغة والتاريخ . زد على ذلك ، انه قد يؤدي ـ بمرور الزمن ـ الى تباعد وتباين في اللغة والتاريخ أيضاً .

إن هذه النتيجة التي تظهر من تتبع الحوادث الاجتماعية واستعراض الوقائع التاريخية ، لم ترق لرجال الدول التي اعتادت أن تحكم بعض الشعوب بالرغم من اختلاف لغاتها وتباين تواريخها ، ولذلك أخذ مفكرو تلك الدول يبحثون عن نظرية تبرر بقاء الوضع القائم في بلادهم وتوصلوا الى نظرية جديدة ، عرفت باسم « مشيئة التعاشر ورغبة الاتحاد » .

قالوا ان أهم العوامل التي تلعب دوراً حاسماً في تكوين القومية ، هو مشيئة الجماعات في البقاء متحدين ، وفي تكوين أمة متحدة ذات شخصية واستقلال .

انهم علّلوا نظريتهم هذه بالملاحظات التالية : من الأمور البديهية أن الروابط القومية هي روابط معنوية ، ومن الأمور المسلَّم بها أن أهم ما في مقومات شخصية الانسان هو الارادة والمشيئة . ونستطيع أن نقول لذلك : ان أهم ما في مقومات شخصية الجماعات أيضاً هو الارادة والمشيئة : ارادة القوم في الحياة المعشرية ، رغبتهم في الاتحاد ، مشيئتهم في تكوين أمة واحدة ودولة واحدة ، هي التي تكون روح القومية ومحورها الاساسي . والأمة ، انما هي مجموع الافراد الذين « يريدون » أن يعيشوا عيشة معشرية ، متحدين متضامنين ، مؤلفين دولة مستقلة . . .

ولكن هذه النظرية التي تبدو خلابة في الوهلة الأولى ، تنهار بسرعة ، حينما يتعمق المرء في درس القضية بانعام : « مشيئة الجماعة » تعبير مجرد تماماً عن أمر غامض جداً . ذلك لأن هذه « المشيئة » لا تظهر الا بالتصويت ،ومن المعلوم أن التصويت يتأثر كثيراً بالاعتيادات والدعايات ، وتتحول لذلك بسرعة ، وذلك يخرج « الامة » من عداد « الجماعات الطبيعية » ، ويجعلها شبيهة بالاحزاب المصطنعة .

إن أصحاب نظرية « المشيئة » اضطروا لذلك الى تعديل تعريفهم ، واتمامه بقولهم « المشيئة التي تظهر بصورة فعلية » ، ولكن التاريخ يعطينا أمثلة عديدة تكفي لتفنيد النظرية المذكورة بهذا الشكل المعدل أيضاً : مثلاً ان الولايات الجنوبية في أميركا كانت أرادت الانفصال عن ولايات الشمال ، وكانت أظهرت ارادتها هذه بصورة فعلية خلال الحروب

التي خاضت غمارها ضد الجيوش الشمالية ، ومع هذا فانها لم تؤلف أمة خاصة مستقلة عن الولايات المتحدة الأمريكية .

في الواقع ان أصحاب النظرية المذكورة حاولوا أن يدفعوا أمثال هذه الانتقادات ، باضافة قيد جديد علي تعريفهم الاساسي ، فقالوا « المشيئة التي تظهر بصورة فعلية وتستمر مدة طويلة» . ولكن من البديهي أن تعبير « مدة طويلة » تعبير غامض لا يصلح أن يكون أساساً لنظرية علمية .

وزيادة على ذلك ، فإن الرغبة والمشيئة ، من الأمور النفسانية التي لا تخلو من دواع وأسباب ، والنهج العلمي يتطلب دوماً استكشاف هذه الدواعي واستطلاع تلك الاسباب ، فاذا سلمنا بـ « ان الامة هي جماعة من الناس الذين يريدون أن يعيشوا متحدين ، وأن يكونوا دولة مستقلة » وجب علينا أن نتساءل في الوقت نفسه :

ما هي الاسباب والعوامل التي تدفع بعض الجماعات الى مثل هذه الرغبة ، وتولد فيهم مثل هذه الارادة ؟

لماذا يرغب الافراد أن يعيشوا متحدين كأمة متميزة ، ولماذا يريدون أن يؤلفوا دولة مستقلة ؟

ما هي العوامل التي تولد في نفوس القوم الرغبة في الاتحاد أو الانفصال والتي تجعلهم يريدون أن يعيشوا متحدين أو متفرقين ؟

ولا حاجة الى القول : ان هذه الاسئلة ، تعيدنا الى النقطة التي كنا بدأنا منها درسنا وبحثنا في عناصر القومية ، وتوصلنا في آخر الأمر الى النتيجة التي كنا حصلنا عليها قبلاً :

إن أهم العوامل التي تولد في النفوس رغبة الاتحاد ، فتؤدي الى تكوين القومية وتأليف الامة ، انما هي : وحدة اللغة والتاريخ .

ذيل

- ١ -

بمناسبة تعبير « وحدة التاريخ » الذي استعملته مراراً ـ خلال بحثي هذا ـ أود أن أشير الى أمر ذي بال :

ماذا يجب أن نفهم من تعبير « وحدة التاريخ » ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال اجابة دقيقة من الأمور الصعبة جداً ، لأن « وحدة

التاريخ » بمعناها المطلق التام ، مما لا يتحقق أبداً في حياة أمة من الأمم ، ولا دولة من الدول . ففي كل دولة توجد بعض الاقطار التي لم يتحد تاريخها مع تاريخ بقية أقطارها الا منذ مدة قصيرة ، توجد بعض الاقطار التي يختلف تاريخها عن تاريخ الاقطار الباقية قليلاً أو كثيراً ، وذلك ليس في الدول والأمم التي اتحدت حديثاً فحسب ، بل في الدول والامم التي أتمت وحدتها القومية منذ عدة قرون أيضاً . واذا أنعمنا النظر في تاريخ فرنسا مثلاً ، ـ وهي التي سبقت سائر البلاد الاوروبية الى تكوين وحدة قومية ـ ، وجدنا فيها عدة مقاطعات لم تلتحق بها الا منذ بضعة قرون ، وعلمنا أن قسماً من مقاطعاتها كانت قد حاربت مقاطعاتها الأخرى حروباً طويلة ، استمرت عدة قرون .

فعندما نقول «وحدة التاريخ » يجب ألا نفهم من ذلك « الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ ، » بل يجب أن نفهم من ذلك « الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ » : أهم صفحات التاريخ التي اوجدت ثقافة الامة الاساسية ، وأعطتها لغتها الحالية ، وطبعتها بطابعها الخاص . . . والا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة ، كانت « موحدة » على طول تاريخها توحيداً تاماً .

فقد قال أحد المفكرين : «على كل أمة أن تنسى قسماً من تاريخها».

أنا لا أشك في أن هذا القول ينطوي على حظ كبير من الحقيقة . فان الوحدة الحقيقية في أمة من الامم لا يمكن أن تضمن الا بنسيان قسم من الوقائع التي حدثت لها خلال تاريخها الطويل .

هذا وأرى أن أصرح بأنني عندما أقول « نسيان قسم من وقائع التاريخ » لا أقصد بذلك حذف أخبار تلك الوقائع من الكتب ، بل أقصد من ذلك اهمال تلك الوقائع وأبعادها عن منطقة « الفكر الفعالة » واخراجها من عداد « الفكر القوانية » وتغليب التاريخ المشترك عليها .

فيجب علينا ألا ننسى أبداً انه ما من أمة ولا دولة ، لا يكون لبعض أقسامها تاريخ خاص ، يختلف عن تاريخ أقسامها الأخرى ، ولو في بعض الادوار من تاريخها .

ويجب أن نعلم العلم اليقين ، أن التاريخ يعمل عمله الفعال في تكوين الامم ، على الرغم من أمثال هذه الاختلافات العارضة الطفيفة .

ـ ٢ ـ

وبمناسبة قصة « تأثير الدين في تكوين القوميات » أود أن ألفت الانظار الى أمر جوهري آخر :

ينظر بعض الناس الى علاقة المسلمين بالمسيحيين في العالم العربي الآن بمنظار متوارث من عهود الحروب الصليبية ، أو مستعار من عهد الادارة العثمانية ، واني أعتقد أن في كلتا النظرتين خطأ فاحشاً جداً .

إن الحروب الصليبية كانت قد حدثت في عهد كان فيه الوعي القومي مفقوداً في كل البلاد ، وكان فيه الدين مسيطراً على كل شيء في جميع أنحاء العالم . ومن الواضح الجلي أن الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر تختلف عن ذلك اختلافاً كلياً ، في العالم الاسلامي وفي العالم المسيحي على حدٍ سواء .

كما أن علاقة المسلم بالمسيحي في العالم العربي الآن تختلف اختلافاً جوهرياً عمّا كانت عليه في العهد العثماني ، لأن الفرق بين المسلم والمسيحي في الدولة العثمانية لم يكن فرقاً في الدين فحسب ، بل كان فرقاً في اللغة والتاريخ والقومية أيضاً ، فان كلمة « مسلم » في الدولة المذكورة كانت تعني - في الدرجة الأولى - التركي ، وأما كلمة « مسيحي » فكانت تعني - في الدرجة الأولى - الارمني والرومي والبلغاري . . . ومن المعلوم أن هؤلاء كانوا يختلفون عن الأتراك اختلافاً كلياً ، من حيث اللغة والعنصرية والتاريخ أيضاً ، اذ كان لكل واحد منهم لغة خاصة يتمسك بها ، وتاريخ خاص يدرسه ويتوق الى احيائه ، وملوك سابقون وفتوحات ماضية يعززون ويمجدون ذكراهم وذكراها على الدوام .

ومن البديهي أن ما حدث في العهد العثماني في ذلك الجو المشبع بأنواع الخلافات لا يمكن أن يحدث في العالم العربي الآن . تلك الخلافات التي كانت تتحد وتمتزج خلالها النزعات الدينية مع النزعات القومية فتزيدها اضطراماً ، لا يمكن أن تحدث في العالم العربي - حيث يتكلم المسلم والمسيحي بلغة واحدة ، ويغنيان ويرتلان ويصليان بلغة واحدة ، ويعززان ويمجدان تاريخاً طويلاً واحداً ، ويشتركان في تشييد صرح أدب جديد واحد ، وثقافة راقية عصرية واحدة .

ولعلّ في تاريخ الثورة العربية ، أبرز دليل على ذلك وأقوى برهان . هذه حقيقة جوهرية ، يجب أن نضعها نصب أعيننا على الدوام .

الايمـــان القومـــي(٣)

إن الايمان من أهم القوى المؤثرة في حياة الانسان .

عندما أقول ذلك ، لا أقصد من كلمة « الايمان » معناها الديني الخاص ، بل أقصد معناها اللغوي العام ، أقصد « الايمان » بأي شيء كان ... .

إيمان المريض بامكان الشفاء وفائدة الدواء . . . إيمان المربي بقوة التربية وتأثير المدرسة . . . إيمان القائد بقدرة الجيش وبالنصر النهائي . . . ايمان السياسي بصوابية الخطط الموضوعة ، وبامكان النجاح في الكفاح . . . ايمان الوطني بمجد الامة وكفاءتها وبقدرة الوطن ومستقبله . . . كل ذلك من أنواع الايمان ، وكل ذلك من العوامل التي تؤثر تأثيراً شديداً في أعمال الانسان .

إن للايمان الذي أشرت اليه عدة درجات : هناك الايمان القومي العميق الذي لا يتزلزل بتأثير عواصف الحياة ، ويقاوم جميع أنواع الملمَّات . وهناك الايمان السطحي الضعيف الذي يترجرج تحت تأثير الرياح ، ويخور ويتلاشى أمام الصدمات . . . وهناك ـ بين هذا وذاك ـ درجات عديدة من الايمان ، تتفاوت في القوة والضعف تفاوتاً كبيراً .

إن الايمان القوي يؤلف قوة مهمة في جميع فروع الحياة .

ذلك لأن غايات الانسان في الحياة قلَّما تتحقق في حملة واحدة . بل انها كثيراً ما تتطلب سلسلة أعمال يجب أن تتوالى باستمرار مدة طويلة ، وفي كثير من الاحيان مدى الحياة ، فاذا أقدم الانسان على عمل من الاعمال ، مشروع من المشاريع ، فانه لا يستطيع

(٣) من محاضرة القيت بنادي المثنى ببغداد .

أن يستجمع ويصرف كل ما لديه من قدرة وطاقة في سبيل انجازه ، ما لم يكن مؤمناً بفائدته من جهة وبامكان انجازه من جهة أخرى .

ولا بد أن يلاقي كل شخص خلال سلسلة أعماله هذه ـ الشيء الكثير من الموانع التي تقطع عليه السبل ، ولا بد له من أن يجابه ضروباً من المشاكل التي تمتحن عزائمه . فاذا لم يحمل في نفسه ايماناً قوياً بامكان اقتحام تلك الموانع وازالة تلك المشاكل ، فترت همته وخارت عزيمته ، فأصبح غير قادر على استجماع قواه وحشدها في سبيل الوصول الى غايته . ولذلك تراه يتراخى في العمل لتحقيق تلك الغاية ، ثم يعدل عنها ، ويتراجع عن السبل المؤدية لها . وكل ذلك يحدث، لا لوجود عيب في المشروع أو نقص في الوسائل المؤدية لتحقيقه ، بل لعدم وجود « ايمان قوي » يدفع الرجل دفعاً مستمراً لاتمام العمل وانجاز المشروع .

اننا نشاهد أمثلة عديدة لذلك ، في كل يوم ، في جميع نواحي الحياة :

لقد لاحظ الاطباء وعلماء النفس مثلاً : ان ايمان المريض بنجاعة الدواء وبكفاءة الطبيب ، يؤثر في سير المرض تأثيراً كبيراً ، لأن المريض الذي لا يؤمن بذلك ، لا يعبأ بوصايا الطبيب فلا يعمل ما يجب عمله لمعالجة المرض باهتمام . زد على ذلك أن القنوط من الشفاء ، اذا استولى على ذهن المريض ومخيلته ، حمله على توهم الخطر وتوقع الموت السريع ، فولد في فعاليته العصبية وحالته النفسية اختلالاً شديداً ، وزاد بذلك على المرض الأصلي داءً جديداً .

ولهذا السبب يقرر الاطباء « أن تقوية معنويات المرضى ومحاربة عوامل القنوط فيهم » من أهم وسائل المعالجة ومن أوجب واجباتها .

إن هذا الأمر يكتسب خطورة خاصة في الامراض العصبية . وكان الطبيب الفرنسي الشهير شاركو Charcot قد لاحظ هذه الحقيقة بكل وضوح ، وعبر عنها بتعبير أخاذ : « الايمان الشافي » La foi qui guérit من المعلوم أن بعض الناس يعتقدون بقوة إشفاء في بعض المحلات وبعض العيون ، ويؤمنون بفائدة بعض المياه وبعض العقاقير . وقد درس شاركو القضية دراسة علمية ، وقرر أن زيارة تلك المحلات وشرب تلك المياه كثيراً ما يؤدي الى شفاء بعض الأمراض العصبية ، وذلك ليس من جرّاء تلك المحلات أو خواص المياه ، بل من جراء ايمان المرضى به ايماناً راسخاً . ولذلك اعتبر شاركو « الايمان » من جملة وسائط الشفاء فاستحدث تعبير « الايمان الشافي » الذي ذكرته آنفاً .

وكذلك القُواد والباحثون العسكريون ، قد لاحظوا أن ايمان الجيش بالنصر يؤثر تأثيراً هاماً في سير الحرب ، ويساعد مساعدة كبيرة على الانتصار . وبعكس ذلك ، فان

الشك في النتيجة النهائية ، والقنوط من الانتصار ، يؤثران تأثيراً عكسياً يؤدي الى الانكسار . فالجيش الذي يفقد ايمانه بالنصر ، يبقى معرضاً الى الانهزام والاستسلام من جرّاء انكسارات جزئية . ولا يلبث طويلاً حتى يفقد امكان النصر أيضاً . وأما الجيش الذي يؤمن بالنصر ، فانه يحافظ على قوته على الرغم من الخسائر التي قد يتكبدها . اذ من المعلوم أنه ما من حرب تنتهي بالنصر ، من غير خسارة وانكسار وتراجع ، ولو في بعض الجهات وبعض المواقع وفي بعض الادوار ، فان كل جيش قد يفاجأ في بعض الجهات بهجوم عنيف ، لم يكن مستعداً لمقاومته الاستعداد الكافي ، فيضطر الى الانسحاب والتراجع من هناك . وقد يمنى بانكسار وهزيمة أيضاً في بعض الاحيان في بعض الجهات ، ولكن القائد القدير لا ييأس من ذلك ، بل يبقى رابط الجأش ، ويتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر ، ما دام مؤمناً بالنصر . والجيش الذي يحارب عن اعتقاد وايمان ، ويثق بمقدرة قواده ويعتمد على تدابيرهم ، لا يتأثر كثيراً من أمثال هذه الوقائع الحربية ، فيواصل الحرب بقوة واندفاع . وقد يصل الى النصر في آخر الأمر بعد خسائر فادحة وهزائم عديدة .

ولذلك نستطيع أن نقول ، أن الجيوش لا تتحارب بالوسائل المادية وحدها ، بل تتحارب في الوقت نفسه بالوسائل المعنوية أيضاً . والأمم تستعد للحروب ، ليس بتشييد الحصون وإعداد آلات الحرب وتعبئة الجيوش فحسب ، بل باعداد القوى المعنوية وحشدها نحو الهدف المقصود أيضاً . . .

وبما أن قواد الجيش يعرفون جيداً أن جميع الافراد لا يمكن أن يكونوا رابطي الجأش وراسخي الايمان ، فانهم يتخذون كل التدابير اللازمة لتقوية معنويات جيشهم وادامة ايمانهم بالنصر ، على حين أنهم ـ من جهة أخرى ـ يتوسلون بوسائل شتى لكسر معنويات أعدائهم ، ويسعون الى زعزعة ايمان هؤلاء بالنصر . ولهذا السبب ، كثيراً ما نجدهم يكتمون عن جيوشهم اخبار الخسائر التي قد يتكبدونها في بعض الجهات ، في حين أنهم يسرعون الى اذاعة اخبار الانتصارات التي قد يحرزونها في جهات أخرى . انهم يسعون ـ في الوقت نفسه ـ لاذاعة أخبار انتصاراتهم بين جيوش الاعداء ، مع بعض المغالاة ، حتى انهم لا يتورعون في بعض الاحوال ، عن اختلاق الاخبار ايضاً .

ونستطيع أن نقول ، أن الجيوش عندما تتحارب ، لا تفعل ذلك بقذائف المدافع والطيارات فحسب ، بل انها تتحارب بقذائف الاخبار والاذاعات أيضاً . انها لا تهاجم الخنادق والحصون فحسب ، بل تهاجم المعنويات أيضاً . انها لا تكتفي بدك حصون العدو وحدها ، بل تسعى الى هدم ايمانه أيضاً . ولا نغالي اذا قلنا أن « الايمان بالنصر » انما هو بمثابة « حصن معنوي » لا يقل شأناً عن الحصون المادية في بعض الاحيان .

فالحرب تحتاج على الدوام الى ايمان ، ايمان قوي بالنصر ، في قلوب الأفراد والقواد . . .

إن الكفاح القومي ، والجهاد في سبيل النهضة القومية ، لا يختلف كثيراً عن الحروب ، بهذا الاعتبار : فان النجاح في هذا الكفاح أيضاً يحتاج الى ايمان راسخ في النفوس ، ايمان لا يخور أمام المشاكل ، ولا يتزعزع من الصدمات .

ولا أغالي اذا قلت : ان حاجة الكفاح الى الايمان أشد من حاجة الحروب اليه ، ذلك لأن الحروب الاعتيادية انما تجري بالوسائل المادية ، والايمان انما يؤثر في كيفية استحضار تلك الوسائل المادية واستعمالها . ولكن العمل القومي ، انما هو عمل معنوي في الدرجة الأولى ، فيحتاج الى ايمان عميق قبل كل شيء .

إذ أن الفوز في الجهاد القومي ، والنجاح في نضال النهضة القومية والتغلب على الموانع والعوائق الداخلية والخارجية ، كل ذلك ـ مثلُ الانتصار في الحروب ـ لا يتم في حملة واحدة ، وانما يتطلب الاستمرار في العمل والنضال ، على الرغم من صفحات الخيبة والفشل ، التي لا بد من أن تحدث وتتوالى ، قبل تحقق الفوز النهائي .

ولذلك كله ، أستطيع أن أقول : ان النضال في سبيل النهضة القومية ، يتطلب بذل المجهود لبث « الايمان القومي » في النفوس ولتقوية هذا الايمان وتغذيته بكل الوسائل الممكنة .

*

هذا وأرى من واجبي أن أصرح ، بكل أسف ، أن هذا الايمان لا يزال ضعيفاً في نفوس الشبان . إني كثيراً ما لاحظت آثار هذا الضعف بكل وضوح ، وكثيراً ما تحريت أسباب هذا القنوط بكل اهتمام .

يظهر لي أن معظم الشبان القوميين يأملون تحقيق أمانيهم الوطنية بسرعة ، ويطمحون الى رؤية نجاح القضية العربية على الفور ، وعندما يلاحظون عدم تحقق الفوز السريع الذي كانوا ينتظرونه والنجاح السريع الذي كانوا يأملونه ، يستسلمون الى اليأس والقنوط .

إني أعتقد أن مرد هذه الاحوال كلها هو ضعف « الايمان القومي » في نفوسنا . وأما أسباب هذا الضعف وعوامله فهي كثيرة جداً . غير أن أهمها يعود ـ في نظري ـ الى سوء نظرنا الى تاريخ الامة العربية من جهة ، وعدم توسعنا في درس تواريخ الامم المختلفة من جهة أخرى .

ولهذا السبب رأيت أن أتبسط في شرح هذه العوامل بعض التبسط ، وأن أناقشها بعض المناقشة :

فلننعم النظر أولاً في قضية ماضي الأمة العربية .

من المعلوم أن أمجاد الماضي من أهم عوامل الأمل ودوافع الايمان بالمستقبل ، وذلك لأن المرء عندما يجد في ماضي أمته كثيراً من الصفحات المجيدة ، يزداد ايماناً بامكان استعادة ذلك المجد ، ويشتد اندفاعاً للعمل في هذا السبيل . ولكنه عندما يرى في الماضي كثيراً من الصفحات السوداء يصبح أضعف ايماناً بامكان النهوض ، وأقل اندفاعاً للعمل في هذا السبيل .

ولا حاجة الى القول ، انه ما من أمة خلا تاريخها من أدوار انحطاط وصحائف سوداء ، ما من أمة استطاعت أن تبقى ـ طوال تاريخها ـ قوية ناهضة على الدوام . فإن تاريخ كل أمة من الأمم يتألف عادة من أدوار ارتقاء وانحطاط ، ويعرض للأنظار تارة صحائف سوداء ، وطوراً صحائف بيضاء ، تارة عهود أمجاد وطوراً عهود نكبات . وعندما يستعرض المرء تلك الأدوار وتلك الصحائف ، قد يبقى تحت تأثير المجيدة منها ، فيزداد ايماناً ، وقد يبقى تحت تأثير السوداء منها فيصبح يائساً من مستقبلها .

إني كثيراً ما صادفت بين الشبان من ينظر الى التاريخ العربي بمثل هذه المناظر السوداء ، ومن يستخرج احكاماً تثبط العزائم وتؤدي الى اليأس والقنوط .

تاريخنا ؟ ماضينا ؟ هل كان مجيداً حقيقة في دور من أدواره ؟ ماذا كان لنا غير الحروب والفتوحات التي لم تستمر طويلاً ؟ الخلفاء ؟ أما كانوا يتخاصمون ويتنافسون على الدوام ، وينغمسون في الملذات في اكثر الأوقات ؟ العلماء ؟ ألم تكن مؤلفاتهم مملوءة بالاغلاط والسخافات ؟ وزد على ذلك ، أما كان معظمهم من الاعجام ؟ وأخيراً ، هل تعدى عملهم حدود النقل والترجمة والتكرار ؟

وتاريخنا ، هل يمكن أن يقارن بتاريخ اليونان أو بتاريخ الغربيين في دور من الأدوار ؟

إنني سمعت ـ في مختلف الاوقات ـ أمثال هذه الأسئلة والأقوال . ورأيت أحياناً من ينتهي من كل ذلك الى هذا الحكم (البتات) Catégorique(٤) :

« نحن ساميون ليس لنا قابلية الابتكاروالافتكار والارتقاء مثل الآريين » .

لا أراني في حاجة الى القول إن أمثال هذه الآراء والأقوال تثبط العزائم بطبيعة

(٤) اني اتعمد استعمال هذه الكلمة بهذه الصيغة للدلالة على هذا المعنى.

الحال ، وتؤدي الى زعزعة الايمان القومي واضعافه ، فلا تترك مجالاً لاندفاع النفوس نحو خدمة النهضة القومية بكل ما لديها من قوة .

فلننعم النظر في هذه الملاحظات لنرى مبلغ مطابقتها للحقيقة والواقع : صحيح أن تاريخنا كثيراً ما يبدو ـ من بين الكتب التي نتداولها ـ « تافهاً وهزيلاً » ، بالنسبة الى التواريخ الغربية « الناصعة المجيدة » . ولكن السبب في ذلك لم يكن تفاهة تاريخنا نفسه ، بل هو رداءة الكتب التي تعرض لنا ذلك التاريخ . فإن الكتب التي نقرأها عادة عن تواريخ الغربيين مكتوبة بنظرة علمية وخطة تربوية ونزعة قومية ، في وقت واحد ، على حين أن الكتب التي نقرأها عن تاريخنا بعيدة وخالية من النظرات العامة والخطط التربوية والنزعات القومية في وقت واحد . إننا لا نزال نكتب تاريخنا ، كتاريخ للخلفاء والملوك ! واذا ما أدركنا خطأ هذه الطريقة ، وحاولنا العدول عنها ، جعلناه تاريخاً للأمراء والوزراء ، وقسمناه الى أدوار ، سميناها باسم « الدور التركي والدور الفارسي » حسب جنسية هؤلاء الأمراء والوزراء . وأنا أؤكد لكم بأني لو أردت أن أكتب تاريخ احدى الامم الأوروبية على هذا النمط ، لما استطعت أن أحصل على تاريخ أحسن من تواريخنا أبداً ، ولتغيرت معالم ذلك التاريخ تغيراً كلياً .

صحيح أن خلفاءنا تحاسدوا وتنازعوا وتنابذوا كثيراً ، ولكن الملوك الغربيين الذين عاصروا هؤلاء الخلفاء لم يكونوا أحسن حالاً من ذلك أبداً . ادرسوا تواريخهم من أمهات الكتب المفصلة ، تجدوا فيها أيضاً أنواعاً من المآسي التي لا تقل عن مآسي خلفائنا أبداً ان لم تفقها كثيراً ، تجدوا عندهم أيضاً أنواع المآسي التي حدثت بين الاخوة ، حتى بين الآباء والابناء ، وتتأكدوا عندئذٍ أن الفرق الهائل الذي يظهر بين تاريخنا وتواريخهم ، انما ينشأ من اختلاف طريقة التدوين : اننا نهتم بهذا النوع من الوقائع أكثر من غيرها ، ونتوسع في عرضها وتفصيلها ، على حين أنهم يتركون أمثال هذه الوقائع مطمورة في الكتب المفصلة ، التي لا يقرأها الا رجال البحث والاختصاص .

انهم يذكرون علماءهم بالخدمات التي أسدوها الى ثقافة بلادهم من جهة ، والى حضارة العالم من جهة أخرى ، بقطع النظر عن الاخطاء التي شاركوا معاصريهم فيها ، وبقطع النظر عن وجوه الضعف التي اتصفوا بها ، وأما نحن ، فنهتم بخصوصيات حياة علمائنا أكثر مما ندرس مآثرهم الحقيقية وخدماتهم الفعلية .

نحن نقول : ان معظم أدبائنا ، لم يكونوا من أصل عربي بحت ، ولكنهم يقولون أن المهم هو البيئة والمربي والثقافة ، لا الدم والأصل والنسب .

كتبنا تبدأ تراجم العلماء والادباء بذكر أصلهم ونسبهم ، وتتوسع في بحث ذلك توسعاً كبيراً . على حين أن كتبهم لا تهتم بمثل هذه الابحاث كثيراً .

لو أردت أن أحذو حذو كتبنا في هذا المضمار ، لاستطعت أن أجد في تواريخ الامم الغربية عشرات من العظماء الذين كانوا من نسب أجنبي بكل تأكيد ، ومئات من الذين كانوا مجهولي الاصل تماماً .

ولذلك كله أقول بلا تردد : ان أول الواجبات التي تتحتم علينا ـ لتقوية الايمان القومي ـ هو كتابة تاريخنا على نمط جديد ، بعقلية غربية ونزعة قومية .

*

هذا ، ولا بد لي من كلمة أقولها حول قضية « خدمة العرب للعلوم والحضارة » : لقد اعتاد معظم الكتاب أن يصفوا هذه الخدمة بـ « الوساطة » البسيطة ، لأنهم ينظرون اليها كأنها عبارة عن نقل العلوم اليونانية وايصالها الى الامم الأوروبية .ولكن هذا النظر لا يوافق الحقيقة والواقع بوجه من الوجوه . فان أجدادنا لم يكتفوا بالنقل ، بل أضافوا الى العلوم اليونانية كمية كبيرة من المعلومات المبتكرة الهامة ، ولا سيما في العلوم الرياضية والطبيعية .

ومع هذا ، لو تركنا عمل الابتكار جانباً واكتفينا بملاحظة خدماتهم في النقل وحده ، لما حق لنا أن نستصغر تلك الخدمات أبداً . لو فرضنا أن عملهم كان قد اقتصر على نقل العلوم اليونانية ـ دون اضافة شيء عليها ـ لكان ذلك أيضاً كافياً لوضعهم في مصاف أكبر الامم التي قدمت للحضارة العالمية أجل الخدمات .

واني أود أن ألفت الانظار ـ في هذا المضمار الى ملاحظة أساسية ، أبداها المؤرخ المفكر (بول لاكومب) في تأليفه المشهور : « التاريخ كعلم » .

لاحظ بول لاكومب «ان الرومان لم يهتموا بعلوم اليونان، ولم يقدروها حق قدرها، فلم ينقلوا شيئاً من أمهات الكتب المتعلقة بها. من المعلوم انهم كانوا قد اتصلوا بالحضارة اليونانية عقب الحروب القرطاجية الثانية اي في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، والحضارة التي أوجدوها استمرت مزدهرة حتى نهاية القرن الخامس بعد الميلاد. خلال هذه القرون السبعة لم يترجم الرومان أوقليديس، ولا فكروا في ترجمة هيبارخوس ولا أقدموا على ترجمة بطليموس. وهذه مسألة يجب ان تستوقف الانظار». قد يقال ان عدم ترجمتهم للكتب المذكورة لا يجوز ان يعتبر دليلاً على عدم تقديرهم لأهميتها، لأن ذلك قد يكون ناتجاً عن عدم حاجتهم اليها، نظراً لشيوع اللغة اليونانية بين «منوري الرومان». ولكن بول لاكومب ينفي هذا الاحتمال ويفند هذا الرأي قائلاً: «اننا نعلم ان الرومان ترجموا قصيدة تافهة كان نظمها «آراتوس» في وصف منطقة البروج وشرح تأثير النجوم، وأعادوا ترجمتها ثلاث مرات. إن ترجمة هذه القصيدة التافهة ثلاث مرات مع عدم ترجمة هيبارخوس وبطليموس وأوقليدس، من الحوادث والمشاهد التي تستلفت الانظار».

بعد هذه الملاحظات، ينتقل لاكومب الى عمل العرب ويقول: «لكن العرب ما كادوا يتصلون بالحضارة اليونانية اتصالاً مباشراً ـ بعد خروجهم من الجزيرة واستيلائهم على مصر وسوريا والعراق ـ، حتى شرعوا في ترجمة العلوم اليونانية، ولم يمض على ذلك قرنان الا وقد أتموا ترجمة كل ما كان باقياً من أمهات الكتب اليونانية».

وبعد تقرير هذه الوقائع ، يبدي لاكومب الملاحظات والمحاكمات التالية :

« هل أضاف العرب شيئاً على علوم اليونان ؟ هذا موضوع يتناقش فيه العلماء المتبحرون . . . إفرضوا أنهم لم يعملوا شيئاً غير الحفظ والادامة ، وأن دورهم العلمي انحصر في النقل والترجمة وحدهما . . . فانكم مع هذا تجدون أنفسكم أمام مسألة تاريخية هامة ، عندما تقارنون ذلك بالحقيقتين التاليتين :

أولاً : ان الرومان لم يفعلوا ذلك أيضاً قبل العرب .

ثانياً : ان الامم الغربية التي تكونت على أراضي الامبراطورية الرومانية ظلت عشرة قرون ، دون أن تصل الى النقطة التي كان وصل اليها العرب قبلها » .

ان كاتب هذه الملاحظات لم يكن عربياً ولا شرقياً ، بل كان رجلاً غربياً ، نشأ في بيئة اعتادت أن تنتقص من فضل العرب على الدوام ، فاعترافه بفضل العرب في هذا المضمار جدير بالاعتبار .

غير أني أرى أن أضيف الى ما كتبه لاكومب ملاحظة أخرى ، من الأهمية بمكان :

إن عملية نقل العلوم من « اليونان » التي تمت في عهد اجدادنا الكرام ، لا يجوز أن تشبّه بعمليات النقل والاقتباس التي نقوم بها نحن الآن ، ذلك لأن الحضارة الغربية الحالية حضارة حية ، تبهر الابصار وتخلب الالباب . انها بمثابة مرجل يغلي وموقد يتقد ويملأ العالم ناراً ونوراً . فالاقتباس الآن يكون بمثابة أخذ قبس ضئيل وشعلة صغيرة من نار مستعرة هائلة تقذف الحمم ، مثل البراكين الثائرة ، على حين أن الحضارة اليونانية لم تكن كذلك في عهد النهضة العربية الكبرى : انها كانت حينئذ في دور الانحطاط والتدهور . ونارها ونورها كانا في حالة الجمود . ولا نكون مغالين اذا قلنا انها كانت مكفنة في بعض الكتب المهملة في زوايا الاديرة ، وان مدارستها كانت مقصورة على بعض الرهبان والنساك . ولا نكون مخطئين اذا قلنا ، كانت بمثابة جمرات مغطاة بطبقة كثيفة من الرماد ، أوشكت أن تفقد كل ما كان لها من حرارة .

إن أجدادنا العظام أخرجوا هذه الجمرات من تحت الرماد ، وأوقدوا بها ناراً مستعرة .

وأما ما يقال عن دمائنا « السامية » وعن تقصيرنا الفطري عن الأقوام الآرية ، فهو من أبعد الامور عن الاسس العلمية الصحيحة ، لأن الابحاث العلمية لا تقر أبداً بوجود جنس آري وصفات آرية ودم آري ، ولا بوجود جنس سامي وصفات سامية ودم سامي . بل انها تقرر بكل تأكيد أن الكلمات الآرية والسامية وأمثالها الكثيرة لا تدل على شيء غير العلاقات والمشابهات اللغوية ، وأن الاقوام المعروفة باسم الآرية لا تمتاز بخصائص فطرية عامة ، ولا تتفوق على الاقوام المعروفة باسم السامية تفوقاً طبيعياً .

إني أعرف أن ما أقوله بهذا الصدد يخالف كثيراً مما شاع وذاع بين الناس بوجه عام وبين المفكرين بوجه خاص ، أعرف أنه ينافي كل ما رسخ في أذهاننا من الآراء والمعتقدات حول قابليات الامم وخصائصها . ولهذا السبب ، أرى من الضروري أن أتوسع في شرح هذه النقط شرحاً وافياً ، لأظهر مدى بعد هذه الآراء والمزاعم عن الحقائق الراهنة :

إن فكرة الجنس الآري تولدت من اكتشاف بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الأوروبية في أوائل القرن الماضي . فقد قارن شله جل سنة ١٨٠٨ اللغة السانسكريتية باللغة الالمانية فوجد بعض المشابهات في أصولها ، فاستدل من هذه « القرابة » على وجود « قرابة نسلية » بين الاقوام الهندية وبين الجرمانية ، وأوجد بذلك فكرة « العرق الهندو جرماني » . وقد اكتشف علماء اللغة ـ بعد ذلك ـ بعض المشابهات بين السانسكريتية وبين سائر اللغات الاوروبية ، واستدلوا منها على وجود قرابة نسلية ، ليس بين الاقوام الهندية وبين الاقوام الجرمانية فحسب ، بل بينها وبين سائر الاقوام الأوروبية أيضاً . وقد وسعوا بذلك حدود نظرية « شله جل » وعرضوا الاسم الذي كان وضعه باسم أشمل ، فصاروا يقولون « العرق الهندو أوروبي » . ومن ثم أخذوا يبحثون عن اسم أقصر من ذلك ،فاختاروا أخيراً كلمة « آريان »، وذلك لأنهم وجدوا كلمة « آريانا » مذكورة في الكتاب المقدس القديم « آفستا » في رأس اسماء البلاد المخلوقة من قبل « هرمز » فاصطلحوا على استعمال هذه الكلمة للدلالة على العرق « الجنس » المفترض المبحوث عنه .

إن فكرة « الجنس الآري » نشأت بهذه الصورة من التدقيقات اللغوية ، وانتشرت بعد ذلك انتشاراً كبيراً بفضل بساطتها من جهة ، وبتأثير بعض العوامل السياسية ـ التي وجدتها ملائمة لأهوائها من جهة أخرى .

لكن هذه الفكرة لم تتأيد قط بالتدقيقات العلمية الحقيقية : اذ أن التدقيقات الواقعة برهنت برهنة قطعية على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الاصل والنسل ، وان اللغات قد تنتقل من أمة الى أمة ، من غير أن يكون بينها علائق نسلية ، وأن الأمم التي اعتدنا أن نعتبرها آرية لا يشبه بعضها بعضاً من حيث الأوصاف البدنية ، فالفرض القائل بقرابة تلك

الأمم من حيث النسل والدم ، انما هو فرض واهٍ لا يستند على أسس علمية .

وقد نعت « جان فينو » هذا الفرض بأنه « خرافات ومزاعم باطلة » .

وقد صرح « ده نيكر » Denicker في الكتاب الذي وضعه عن « الاقوام والاجناس » بأنه لا يوجد جنس ـ أي عرق ـ آري ، وان كل ما هنالك إنما هو « فصيلة لغات آرية » ، وربما « حضارة آرية » . وقد أكّد انه لم يعد في استطاعة أحد من العلماء أن يقول بوجود جنس آري تنتقل أوصافه بالدم من الاجداد الى الاحفاد .

وقد قال « مه ييه » Meillet في كتابه « لغات العالم » ما يأتي : « كثيراً ما نتكلم عن أقوام رومانية ، وجنس سلافي ، ونموذج آري . ولكن هذه التعبيرات عارية عن معانٍ واضحة صحيحة ، لأنها لا تخلو من أحد الأمرين التاليين : اما أنها لا تضيف شيئاً الى مفهوم قرابة اللغة ، وإما تضيف الى ذلك فكرة خاطئة » .

وقد عبّر « ماكس موللر » Max Muller ـ الشهير بتدقيقاته اللغوية الـواسعة ـ عن حكم العلم في هذه المسألة بتمثيل حاسم وجذاب ، اذ قال : « ان العالم الاتنولوجي الذي يبحث عن عرق آري ، ودم آري ، وعيون آرية وشعر آري . . يرتكب هرطقة . . لا تقل سخافتها عن سخافة العالم اللغوي الذي يجرؤ على التكلم عن « قاموس مستطيل الرأس » أو « نحوٍ قصير الرأس » .

وقد قال « ماير » : ان « الجنس الآري » من مخترعـات اللغويـيـن . وقال « هارتمان » : « ان الآري لم يوجد الا في مخيلة بعض الباحثين » . وقال « جوهانة » : « لم يبق من يقول بوجود جنس آري ، لا بين علماء البشريات ولا بين علماء اللغات . إن لفظة « آري » انما تدل على صنف من اللغات واللهجات . وهذا الصنف من اللغـات يتخاطب بـه أقوام كثيـرة ، يختلف بعضها عن بعض اختـلافاً كبيراً » .

وخلاصة القول : ان ارجاع الفروق التي تشاهد بين سجايا الاقوام الى اختلاف أجناسها وعروقها ، والقول بأن الاجناس البشرية يمتاز بعضها عن بعض بأوصاف فطرية وراثية ، مما لا يقره العلم الحديث بوجه من الوجوه .

وقد قال المفكر الشهير « جون ستيوارت ميل » : « ان رد الفروق التي تشاهد بين الامم ، الى ما في طبائعها من اختلاف ، انما هو نوع من التهرب ، هو تهرب من درس الاحوال الاجتماعية ، ومن تحري عواملها الاساسية » .

وقال العالم الاجتماعي المعروف « ريبله ي » Ripley : « لننبذ هذه الخرافة التي تعزو فضيلة خاصة أو ذكاء خاصاً ، الى جنس من اجناس البشر» .

وقال الباحث الاجتماعي الشهير « نوفيكوف » : « ان التعليل بطبيعة العرق ، انما هو

بمثابة معطف سهل الاستعمال ، معطف نستعمله لنستر به جهلنا وكسلنا الذهني ، لنستر به جهلنا لحقائق الاشياء ، وكسلنا عن تحري الاسباب » .

هذا ، وأستطيع أن أقول ـ مقتفياً اثر « دور كهـايم » ـ ان تعليل قـابليات الامم بأوصافها الجنسية والعرقية ، لا يختلف كثيراً عن تعليل تأثير الافيون ، بما يسمى « خاصيته المخدرة » ، أو عن تفسير النار بعمل ما يسمى « الجوهر الناري » . ومن المعلوم أن مثل هذه التعليلات كانت من السفسطات واللغويات المعتادة في القرون الوسطى ، وان العلم الحديث قضى على أمثال هذه التعليلات الفارغة قضاء مبرماً .

وقد قال البـاحث الاجتماعي المعـروف « كولا جـانتي » : « أنا أسلّم بـوجود بعض الأوصاف النفسية الخاصة ، في بعض الأفراد والجماعات ، غير أني أنكر قول الـذين يزعمـون أن هذه الأوصاف تكون ملكاً خاصاً ـ أو ميزة فطرية خاصة ـ لجنس أو قوم أو أمة . وأنكر بوجه خاص رأي الذين يزعمون بأن تلك الأوصاف تكون مستقرة في حياة الامم وغير متبدلة ، اذ لا شيء ثابت ومستقر في أوصاف الاقوام وأمزجتها . وأما ما نشاهده من الخصائص عند الاقوام ، فانما هي خصـائص الصفحة الحـالية وحدها . . . » .

وقد قال المفكر الاجتماعي « تارد » : « اننا اذا رجعنا الى ماضي الاقوام التي نراها الآن في أوج العظمة والمجد ـ متصفة بقوة الارادة وشدة الاقدام ـ وجدنا أنها كانت فقيرة ضعيفة ومحرومة من قوة الاقدام ـ وبعكس ذلك الامم التي نراها الآن في حالة الانحطاط ، فاننا اذا استعرضنا ماضيها ، وجدنا انها كانت مثالاً للبطولة ومتميّزة بروح الاقدام والمغامرة . . . » .

ونفهم من ذلك كله : ان خصال الاقوام وسجاياها تتغير بتغير أطوارها التاريخية .

وقد عبر « جان فينو » عن هذه الحقيقة بهذا القول البليغ :

« ان مثل من يبحث عن الاستقرار في نفسيات الاقوام كمثل من يزعم أن الدوائر التي تحدث على سطح الماء عند القاء حجر عليها تحافظ على شكلها الى الأبد » .

وأضاف الى ذلك هذا الحكم القاطع :

« ان نظرية الاجناس ستشغل مكاناً هاماً في تاريخ اضاليل الفكر البشري » .

أظن أن أقوال العلماء التي ذكرتها آنفاً لا تترك مجالاً للشك في خطأ الذين يتشاءمون من مستقبل الأمة العربية مستندين الى نظرية « الأرية والسامية » .

إن الأمة العربية كانت قد وصلت فيما مضى الى أرقى درجات الحضارة ، وكانت أقوى منار للعلم في العالم خلال عهد طويل . كما لعبت دوراً هاماً في تاريخ تقدم البشر لم يتيسر مثله الا لبضع أمم . . . والأمة التي كانت وصلت الى هذه المرتبة من التقدم ، لا

يعقل أن تصبح ، ولا يمكن أن تصبح ، غير قادرة على النهوض .

*

وأما الذين يستسلمـون الى القنوط والتشـاؤم من كثرة المشـاكل والمسـاوىء التي يلحظونها . . . فاني أدعـوهم الى التوسـع والتعمق في درس تواريـخ النهضات القـومية الحديثة ، لأني أجد فيها أحسن الادوية الشافية من داء التشاؤم والقنوط ، وأقوى المؤثرات الموقظة للايمان القومي .

لا شك في أن سبيل النهضة والوحدة محفوفة بأنواع المشاكل والعقبات . ولا شك في أن الموانع التي يجب علينا أن نقتحمها قبل أن نصل الى غايتنا المنشودة كثيرة وكبيرة جداً . غير أن هذه المشاكل ـ مهما كانت عويصة ، ـ وهذه العقبات ـ مهما كانت عظيمة ـ ، يجب ألا تثنينا عن عزمنا ، والا تزعزع ايماننا .

يجب أن نعرف أن هذه المشاكل ـ من داخلية وخارجية ـ لم تكن خاصة بنا وحدنا ، بل ان كل أمة من الامم التي نهضت وتوحدت منذ قرن ، جابهت من المشاكل مثـل ما جابهنا ، وصادفت من العقبات مثل ما صادفنا . ولكن التاريخ يعلمنا انها تغلبت في آخر الأمر على جميع تلك المشاكل ، واجتازت كل تلك العقبات . وذلـك لأن « الأمة » من الكائنات الطبيعية الحية ، وان للحياة قوة ، وللطبيعة احكاماً .

فلا يجوز لنا أن نرتاع من كثرة المشاكل وان نفزع من هول العقبات ، بل يجب علينا أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن تلك المشاكل والعقبات ، ستتلاشى أمـام نهضتنا القـومية ، وستزول أمام قوة حقنا في الوحدة والحياة .

يجب على كل منا أن يحمل هذا الايمان ، والا يفسح مجالاً لتسرب القنوط الى قلبه .

يجب على كل منا أن يؤمن إيماناً قوياً بأن الامة العربية التي قامت في الماضي قومتها الجبارة ولعبت دورها العالمي الخطير ، لا بد أن تقوم من كبوتها الحالية ، ولا بد من أن تستعيد المكانة اللائقة بماضيها المجيد ، في تاريخ العالم الجديد . . .

بيـن الوطنيـة والأمميـة (٥)

- ١ -

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة في النفوس البشرية . ومع هذا فإنها لا تسلم من أعداء وخصوم تسعى الى كسر قوتها واضعاف تأثيرها . واني سأتحدث اليكم هذه الليلة عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها .

وعندما أقول « أعداء وخصوم » ، لا أقصد بقولي هذا « الاشخاص والأفراد » ، بل أقصد « الميول والنزعات » . لا أقصد الأشخاص والافراد الذين يعادون وطنهم ويخونون أمتهم ، بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التي تعاكس الدواعي الوطنية وتوجه العواطف والاعمال الى اتجاه يخالف اتجاهها .

إن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الوطنيـة وتعاديهـا بهذه الصـورة ، هي « الانانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شيء ، على حين أن « الوطنية » على عكس ذلك ـ تدعو الى « الإيثار » و « التضحية » في سبيل الوطن والقومية . إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ، ويخدم أمته بكل ما أوتي من قوة ، وأن يضحي بشيء كثير من راحته وهناءته في هذا السبيل ، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هذه التضحية الى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم .

ولذلك نستطيع أن نقول : ان الانانية تعمل على الدوام عمـلاً معاكسـاً لدواعي

(٥) من محاضرة أُلقيت بنادي المثنى ببغداد . ونشرت في مجلة: **الرسالة** (القاهرة)، (١٩٣٨).

الوطنية . فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الانانية المعادية لها .

غير أن الأنانية لا تعادي النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها . فكسر قوة الانانية ليس من الأمور التي تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التي تتطلبها سائر النزعات الاخلاقية بأجمعها .

ولذلك نستطيع أن نقول أنه خلال النضال العنيف الذي يحدث بين الوطنية والأنانية ، لا تبقى الوطنية بدون انصار ، بل أنها تجد لنفسها عدة انصار من سائر النزعات الاخلاقية التي تشترك معها في هذا النضال .

*

غير أن هناك بعض النزعات التي تعادي الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الاخلاقية ، فالوطنية لا تجد لنفسها انصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هذه النزعات ، فتحمل أعباء النضال بمفردها بطبيعة الحال .

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية ، فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التي تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرة » ، فتدعو الناس الى نبذها والتخلص منها .

لعلّ أقدم هذه الآراء والمذاهب هو الفكرة التي تعرف في بلاد الغرب باسم « كوزموبوليتية » Cosmopolitisme بمعنى « مواطنية العالم » ، أو بتعبير أقصر « العالمية ». هذه الفكرة تدعو الناس الى الترفع عن النزعات الوطنية الخاصة ، وتطلب اليهم أن ينزعوا الى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان .

أما الملاحظات التي تستند اليها فكرة العالمية ـ فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات :

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ أليست كلها من أجزاء الأرض التي نعيش عليها ؟ . . . . وما قيمة الحدود التي تفصل الأوطان بعضها عن بعض ؟ أليست كلها من الأمور الاعتبارية التي أوجدتها الوقائع الحربية او المناورات السياسية ؟ . . . وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ أفلم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالانسان ـ والحالة هذه ـ أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الاوطان وفوق الامم ؟ فليعتبر الارض بأجمعها « وطناً » ، كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين »

لقد مر ـ في الحقيقة ـ في تاريخ حياة البشرية عهود طويلة كانت فيها « الرابطة الوطنية » ضيقة محدودة ، لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن ، كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل ، فقد شهد التاريخ « العهد » الذي ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التي كانت متخالفة ، وانتفت فيه

الضغائن من بين القبائل التي كانت متعادية ، فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية الى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت الى الحدود التي نشاهدها في الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التي حدثت بهذه الصورة الى الآن تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ، فسيأتي يوم تندمج فيه الاوطان المختلفة في بعضها البعض الى أن يصبح « العالم » « الوطنَ المشترك » لكل الناس ، كما تمتزج فيه الامم المختلفة ببعضها البعض ، الى أن تصبح « الانسانية » بمثابة « القومية المشتركة » بين جميع أبناء البشر . واما « النزعة الوطنية » التي نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامي العواطف ، وستترك محلها الى عاطفة انسانية ، وأخوّة شاملة ، فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر الناس في استقبال هذا التطور الجديد ، فيسموا بأنفسهم ـ من الآن ـ فوق الوطنيات الخاصة ، ويعملوا بهذه الصورة على سرعة حلول عهد الانسانية الحقة . . .

هذه هي سلسلة الآراء والملاحظات التي تستند عليها فكرة « الكوزموبوليتية » أي « فكرة العالمية » .

لا شك في أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء . انها تفسح أمام الاذهان مجالاً واسعاً لأحلام الاخوة البشرية وأماني السلم الدائم ، وتلوح أمام الخيال بعالم جديد ، أرقى وأسمى من العالم الذي نعيش فيه الآن ، فمن الطبيعي أن تستولي هذه الآراء ـ في الوهلة الأولى ـ على بعض النفوس التوّاقة الى الكمال ، ولو كان في الخيال .

لقد انتشرت الفكرة ـ فعلاً ـ انتشاراً كبيراً بين المفكرين في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، ولا سيما في المانيا ، حيث أصبحت النزعة السائدة في عالم الفكر والفلسفة ، فكان معظم الفلاسفة والأدباء ـ من غوته الى لسينغ ، ومن هردر الى شللينغ ـ يقولون بها ويدعون اليها ، فكان « غوته » ـ مثلاً ـ يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول : « وقانا الله منها » ، وكان « هردر » يعتبر الوطنية من النزعات التي لا تليق بالمتنوّرين والمفكرين .

ومما هو جدير بالانتباه والملاحظة ، أن هذه النزعة الفكرية ـ مع انحدارها في الاصل من روح التشوق الى الكمال ـ تتفق في النتيجة مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الانانية الخفية ، لأن « فكرة الانسانية والعالمية » نزعة أفلاطونية ، لا تتطلب من الفرد عملاً سريعاً وتضحية فعلية . على حين أن الوطنية نزعة واقعية ، تتصل بالحياة وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الاعمال والتضحيات بصورة سريعة . فالانصراف عن النزعة الوطنية استناداً الى « فكرة الانسانية » يكون بمثابة الانصراف عن الاعمال الايجابية استكانة الى الأوضاع السلبية . ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الانانية التي كثيراً ما تتقنع بأقنعة خداعة وتجر وراءها كثيراً من الميول النفعية .

لقد انتبه « جان جاك روسو » الى هذه الحقيقة ، فانتقد « الفكرة العالمية » بأسلوب لاذع ، فقال : « ان بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التي تترتب عليهم من جرّاء حب أبناء وطنهم الاقربين » .

وعلى كل حال ، يمكننا أن نقول : ان فكرة « العالمية » انتشرت في القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً ، بسبب تشوق المفكرين الى الكمال الخيالي من جهة ، وبدافع ميل الناس الى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى .

هذا الانتشار صار عظيماً في البلاد الالمانية بوجه خاص ، أولاً ، لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكري الالمان عندئذٍ ، وثانياً ، لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية ، بسبب انقسام الالمان الى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية القومية نمواً سريعاً . اننا نجد في احدى الكلمات التي كان قالها المفكر الالماني « شله يجل » دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ، فقد قال : « من العبث أن نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية ونخدم الإنسانية . . . » .

واستمر الحال في البلاد الالمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة « يه نا » .

ولا شك أن الانهزام الهائل الذي مني به الجيش البروسي في واقعة « يه نا » كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية وانتشار الفكرة العالمية : فان الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال ، تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف الى بلادهم .

غير أن كل ما حدث بعد ذلك ، بدّد احلام (العالميّة) وأماني (الانسانية) التي كانت مستولية على النفوس . وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروقَ الهائلة بين « الوطن » الذي ينتسب اليه ، وبين غيره من الأوطان ، وبين الامة التي ينحدر منها وبين غيرها من الامم .

فان الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية ، اضطروا ـ بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة ـ الى الانخراط في سلك الجيوش المذكورة ، ليخدموا مآرب قائدها الخاصة . انهم ارغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ، ليحاربوا ـ برغم أنوفهم ـ ضد الدول والأمم التي أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها ، دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية .

وهكذا قد شاهد مفكرو الالمان بأعينهم ، انه حينما كانوا يغطون في أحلام الانسانية

والعالمية ، استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الاحلام ومتشبعة بروح الوطنية بأشد وأقوى أشكالها ، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم ، تستعبدهم وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم الى حيث تريد .

فكان من الطبيعي أن تنقلب الآراء والنزعات السائدة في المانيا انقلاباً هائلاً ، تحت تأثير الدروس القاسية التي ألقتها هذه الوقائع والنكبات . وفي الواقع لم يمض على وقعة « يه نا » مدة طويلة الا وقد تركت فكرة العالمية محلها الى حماسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة ، وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هي التي أدت الى نهضة بروسيا المعلومة ، وخلصتها من نير الفرنسيين ، ثم قادت الامة الالمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة ، والقوة ، والعظمة .

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق ، فيما قاله وكتبه بعض مفكري الالمان أنفسهم في ذلك العهد . أود أن أذكر لكم مثالين بارزين ، أحدهما من الحكماء وهو « فيخته » ، والثاني من الشعراء وهو : « آرنت » .

عندما يُذكر اسم « فيخته » في المانيا ، يتبادر الى الاذهان حالاً الخطب الحماسية التي وجهها الى الامة الالمانية خلال أيام النكبات التي ذكرناها . وتعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في المانيا ، ومن أقوى موجهات القومية فيها .

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة في مدرج جامعة برلين ، عندما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية في شوارع العاصمة البروسية وميادينها . وتحتوي هذه الخطب على نظريات فلسفية في تاريخ حياة الامة الالمانية ، وأبحاث شائقة عن الحيوية الكامنة فيها ، وعن وسائل التربية التي تكفل تجديد حياتها . وكل هذه النظريات والابحاث ترمي الى غاية واحدة ، هي استنهاض الهمم في سبيل بعث الامة الالمانية واعادة بناء مجدها .

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو الى نزعة قومية متعصبة . ولا سيما الخطبة الختامية ، فانها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض : يوجه فيخته في خطبته هذه بعض الكلمات الى الشباب ، ثم الى الكهول ، ثم الى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً الى الامراء ، مصدّراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله : « ان خطبي تستحلفكم وتبتهل اليكم . . . » .

بعد ذلك يضطرم حماسة فيقول لهم جميعاً : « ان أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معي ويضمون صوتهم الى صوتي » ، ويأخذ في تصوير صوت الأجداد بأسلوب حماسي جذاب . ثم يعقب

ذلك بقوله : « ان أخلافكم أيضاً يتضرعون اليكم . . . » ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر جذاب .

وأخيراً ينهي الخطبة بكلمات تـدل على شعـوره بغرور قـومي عميق : « . . . ولو تجاسرت ، لأضفت الى كل ما تقدم ، قائلاً : « ان القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم . لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشري بقدر ما حافظت عليها أمتكم المجيدة فاذا سقطت الأمة الالمانية ، سقط معها الجنس البشري بأجمعه ، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة » .

تصوروا أيها السادة ، أن المفكر الذي استرسل في التحمس للقومية الالمانية بهذه الصورة العجيبة ، كان قد ظل بعيداً عن التفكير في الوطن والوطنية حتى نكبة « يه نا » الأليمة ، تجاوز العقد الرابع من عمره ولم يكتب كلمة واحدة عن الوطن والوطنية ، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الاخلاقية والاجتماعية . بل بعكس ذلك أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية ، حتى أنه في أحد الدروس التي ألقاها وهو في الثانية والأربعين من عمره احتقر الذين يرون وطنهم في الأرض والأنهر والجبال . فقال : « انني أسأل ما هو وطن الاوروبي المسيحي المتمدن حقيقة ؟ هو أوروبا بوجه عام ، والدولة الأوروبية التي تشغل الصف الأعلى في سلم الحضارة على وجه أخص » (وكان فيخته يشير في قوله هذا الى الدولة الفرنسية نفسها) .

ان المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين حدوث واقعة « يه نا » كانت تسعة أشهر فقط . وأما المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين القاء الخطب الوطنية التي ذكرتها فلم تتجاوز الثلاث سنوات . فان الوقائع التي حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيخته الى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة الى النزعة الوطنية المتشددة ، وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الالمانية ومن أقوى وأنشط الداعين اليها . . .

وأما « آرنت » فقد اشتهـر بأشعـاره الوطنيـة التي أيقظت في نفـوس الالمان روح الحماسة والتضحية ، وأوقدت في قلوبهم روح النخوة والحمية ، في تلك الايام المملوءة بأنواع المصائب والنكبات .

فاسمحوا لي أن أقرأ على مسامعكم نموذجاً من أشعاره الحماسية :

« أعطوني وطناً حراً ، وأنا أرضى عندئذ أن أفقد كل شهرتي ، فيصبح اسمي منسياً ، لا يذكر في غير داري ودار جاري . . .

أعطوني بقعة من أرض جرمانية ، يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرمى بسهم فرنسي . .

أعطوني كوخاً صغيراً يستطيع أن يصيح ديكي فوق حاجزه ، دون أن يقع فريسة في يد فرنسي . وأنا

أصبح عندئذ مثل الديك ، وأغرد مثل العندليب ، بكل فرح وسرور ، ولو أفقد كل ما ملكته يداي ، فلا يبقى شيء يستر جسمي غير قميص بال . . . » .

تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذي أظهر مثل هذا الشعور الوطني الرقيق بهذا الشكل الطريف ، في هذا الشعر الحماسي وفي مئات من أمثاله ، هذا الشاعر أيضاً كان بعيداً عن فكرة الوطن والوطنية ـ بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله اذ ذاك ـ حتى حروب نابليون ، اعترف بذلك بنفسه فقال : « انني عرفت وطني في ثورة الغضب ، وأحببته في ساعة النكبة » .

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لاظهار التطور العميق الذي حدث في الآراء والنزعات في البلاد الالمانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها ، في العقد الأول من القرن التاسع عشر .

ونستطيع أن نقول : ان الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها في المانيا تماماً ، وتركت محلها لروح وطنية متأججة ، استمر اضطرامها طوال القرن التاسع عشر .

ولكنها لم تندثر تماماً في سائر البلاد ، بل على عكس ذلك ـ وجدت في بعضها تربة صالحة لنموها ـ تحت شكل جديد ، هو فكرة السلم الدائم العام :

فلقد تشكلت عدة جمعيات تدعو الى السلم والتآخي ، منذ سنة ١٨١٤ . تألفت أول جمعية من جمعيات السلم في أمريكا ، وأخذت تسعى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى . انها أخذت تدعو الى توحيد الاوطان . حتى أنها لم تتردد في بعض الاحيان عن توجيه حملات عنيفة على الوطنية في سبيل هذه الدعوة . ان فكرة السلم والتآخي وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الانصار والمريدين بين الادباء والمفكرين ورجال الدين . وصار هؤلاء يعقدون سلسلة مؤتمرات أممية بقصد نشر فكرة السلم والتآخي بين الامم .

غير أننا اذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة وجدنا أن هذا الانتشار لم يجر باطراد على وتيرة واحدة ـ فان الفكرة كانت تنتشر انتشاراً لا بأس به مدة من الزمن ، ثم تنحسر فجأة ، عندما تصطدم بالوقائع ، وتشهد حدوث حروب جديدة ، تبدد الاحلام المستولية على الاذهان ، وتثير ضغائن جديدة بين الامم .

ونستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي العظيم « فيكتور هوجو » . انجذب هذا الشاعر الى فكرة « توحيد الاوطان ونشر ألوية السلم على العالم » . فاشترك في مؤتمرات السلم ، وألقى في بعضها خطباً ، وأرسل الى بعضها رسائل . وفي كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام وايماناً عميقاً بتوحيد الاوطان . وتخيل في احدى

خطبه العهد الذي ستتحد فيه الدول الاوروبية بأجمعها ، والعهد الذي ستتصافح فيه الولايات المتحدة الاوروبية والولايات المتحدة الأميركية من وراء البحار ، وتوحد أعمالها لخير البشر العام . كما انه حلم بالعهد الذي ستنتقل فيه المدافع الى المتاحف ، وستترك القذائف محلها لأوراق التصويت في ندوة عالمية تكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأي الحر . وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لازالة الحدود ، والفوارق من بين الامم ، قائلاً : « ان رأس البلاء هو الحدود ، لأن مفهوم الحدود يتضمن المخفر ، والمخفر يتطلب الخفير ، والخفير يستوجب الجيش ، والجيش يدعو الى الحرب . فلنحذف الحدود ، لكي نرى ألوية السلم منتشرة بين البشر . . » .

ومن غريب المصادفات أن هوجو كان أرسل هذا البيان الى مؤتمر السلم الذي انعقد في لندن سنة ١٨٦٩ ، أي قبل نشوب حرب السبعين بسنة واحدة فقط . وما كادت الحرب تنشب بين فرنسة والمانية ، حتى ترك الشاعر هذه الاحلام جانباً ، وأخذ يبدع سلسلة أشعار حماسية تتأجج فيها روح وطنية ثائرة .

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ في هذا الباب . بل ظهر له أمثال كثيرون في كثير من البلاد . فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن الى فكرة توحيد الاوطان ، ثم عادوا الى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحوادث .

لا ننكر أن البعض ظل متمسكاً بهذه الفكرة طول حياته كما فعل « تولستوي » الشهير ، فانه ظل يدعي أن الوطنية من بقايا العهود الهمجية ، وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يعترف بالوطن والوطنية . . . وظل يدعو الناس الى نبذ النزعات الوطنية ، مهما كانت أشكالها ، والى الامتناع عن الحروب مهما كانت الاسباب الداعية اليها . غير أن روزفلت الكبير كان أجاب على آراء « تولستوي » في احدى خطبه بكلمة طريفة جداً ، اذ قال :

« نعم ، قد يأتي عهد ـ في أغوار عصور المستقبل البعيد ـ تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها . كما انه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الاسرة فالزواج . غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرق بين وطنه وسائر الاوطان ـ في المجتمع الذي نعيش فيه الآن ـ ، يكون عنصراً مضراً ، كالرجل الذي لا يفرق بين زوجته وسائر النساء . . . » .

إن دعاة السلم العام والاخوَّة البشرية الشاملة الذين ظهروا طوال القرن التاسع عشر ، وحتى أوائل القرن العشرين ـ حتى الحرب العالمية ـ ، كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانيهم . غير أن الوقائع والحوادث كانت تأتي على الدوام معاكسة لتلك الاماني والاحلام . انهم كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول الى أسواق تجارية ، غير أن

الوقائع أتت بنتائج معاكسة لذلك تماماً : لأن الاسواق التجارية أصبحت مثاراً للحروب . . .

كانوا يقولون أن المدافع ستنتقل الى المتاحف ، ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك . فان المدافع التي كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً الى المتاحف ، غير أن ذلك لم يحدث من جرّاء انتصار فكرة السلم العام ، كما انه لم يؤد الى تقوية الفكرة المذكورة . انه حدث من جراء اختراع انواع جديدة من المدافع المتفوقة في قوتها الحربية .

كانوا يوجهون أنواع السهام الى « الحدود » التي تفصل الدول عن بعضها البعض ، وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام . فقد حدث فعلاً في الحدود التي كانوا يعرفونها انقلابات عظيمة ، أدت الى تبدل عشرات منها وزوال مئات . غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الامم بأجمعها ، ولا على اساس توحيد الامم المتمدنة وحدها ، بل حدث من جرّاء تحقيق النزعات القومية واعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات . فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التي كانت تنقسم اليها الامم ، فكونت دولة كبيرةأشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التي اندمجت فيها . هذا ، ومن جهة أخرى فقد تجزأت بعض الدول الكبيرة التي كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات ، وانقسمت الى عدة دول مستقلة بعضها عن بعض ، غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية وأدى الى تقوية تلك النزعات .

ازاء هذه النتائج الفعلية ، فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لها من قوة ، فأخذت فكرة السلم العام ونزعة الاخوة البشرية اتجاهاً جديداً يختلف عمّا كان يقصده دعاة العالمية كل اختلاف .

هذا الاتجاه الجديد هو الدعوة الى التعاون والتضامن بين الامم ، داخل نطاق الوطنية والقومية تماماً : فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها ، على أن تحترم الامم الأخرى أيضاً ، فلتبق كل أمة مستقلة في شؤونها ، على أن تتعاون مع سائر الامم في مختلف ساحات النشاط البشري ، من العلم والثقافة الى الاقتصاد والمواصلات .

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخيالية ، بل هي من النزعات العملية التي انتجت نتائج باهرة ، وساعدت على تكوين « مؤسسات أممية » كثيرة من « اتحاد البرق والبريد الأممي » الى «مؤسسة التعاون الفكري الاممي » ، لا سيما بعد الحروب العالمية .

ونستطيع لذلك ان نقول: إن «نزعة الوطنية» خرجت سالمة ظافرة من الكفاح العنيف الذي حدث بينها وبين «فكرة العالمية» بأشكالها المختلفة.

*

غير أن الوطنية ـ بالرغم من تغلبها على النزعات المعادية التي ذكرناها آنفاً ـ وجدت نفسها منذ مدة أمام نزعة معادية أخرى أشد خطراً من تلك ، هذه النزعة هي « الاممية الشيوعية » .

ان دعاة هذه « النزعة الاممية » لم يحلموا بآمال السلم العام ، ولم يعللوا أنفسهم بأماني الاخوة البشرية الشاملة . بل انهم على عكس ذلك آمنوا بضرورة الحرب واستعدوا لها . غير انهم قالوا أن هذه الحروب يجب أن تنشب بين الطبقات ، يجب على عمال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليحاربوا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم .

إن دعاة الاممية الشيوعية يريدون تغيير نظام المجتمع الحالي من أساسه ، ويعتقدون ان ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب ، ويقولون أن هذه الثورة يجب الا تتقيد بقيود الوطنية ، بل يجب أن تعمل ضدها .

يقول هؤلاء أن الوطنية من وسائل حكم الرأسمالية ، وهي من الاسلحة التي تستعملها الرأسمالية لخداع الصعاليك واستخدامهم لأغراضها الخاصة ، فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعي ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتمحى الحدود التي تولدت منها . فالأممية الشيوعية تدعو الى نبذ الفكرة الوطنية ومحاربة الرأسمالية اينما كانت ، وبأية وسيلة كانت . لذلك تطلب الى العمال أن يتحدوا دون أن يتقيدوا بالروابط التي أوجدتها هذه النزعات . ولهذا السبب تبدأ دعوتهم كل يوم بهذه الفقرة :

« يا عمال العالم . . . اتحدوا » .

تدعو الأممية الشيوعية جميع عمال العالم الى الاتحاد ، لأنها تقول بأن وطن العامل هو المعمل وحده ، وأما مواطنه الحقيقي فهو العامل مهما كانت قوميته ، كما أن عدوه الأصلي هو الرأسمالي مهما كان الوطن الذي ينتسب اليه ، فعدو العامل الفرنسي مثلاً ـ ليس الجندي الالماني أو الانكليزي أو الروسي ، بل هو الرأسمالي ، سواء أكان من الفرنسيين أو الالمان أو الانكليز أو الروس . فيجب على جميع عمال العالم ان يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم .

واذن يجب أن تفكك أوصال الاوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية ، يجب أن تزول كل هذه الروابط التي تجمع « العمال وأصحاب رؤوس الاموال » في كل وطن تحت لواء واحد ، وتفرق بين العمال الذين ينتسبون الى دول وأوطان كثيرة . يجب أن تترك هذه الروابط الوطنية محلها لرابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات . بهذه الصورة وبهذه الصورة وحدها ، يتم النصر للنظام الشيوعي في كل العالم ، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة العمال ورفاهيتهم .

هذه هي ـ على وجه الاجمال ـ أهم الآراء التي تدلي بها « الشيوعية الأممية » في أمر النزعات الوطنية .

إن هذه الدعاية الأممية ، كانت تقوم على عواتق بعض الأفراد والجمعيات ، حتى الحرب العالمية الماضية . غير أن الشيوعيين تمكنوا في أواخر الحرب العالمية ـ من الاستيلاء على أعنة الحكم ، في دولة من أعظم دول العالم ، وأسسوا فيها نظاماً شيوعياً . وهذه الدولة الشيوعية ـ أي روسية السوفياتية ـ أخذت على عاتقها مهمة الدعوة الى الامية في كل انحاء العالم ، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائل مادية ومعنوية ، من أموال وافرة الى تشكيلات منظمة .

إن آلام الفقر وآمال الرفاهية ، التي تستولي على نفوس العمال من جهة ، والدعاية الخلّابة التي تقوم على تشكيلات واسعة النطاق ومحكمة الترتيب من جهة أخرى . . . قوّت النزعة الأممية الشيوعية في بعض البلاد ، وأقامت بهذه الصورة أمام النزعة الوطنيةعدواً جديداً خطراً جداً .

ومن الطبيعي أن النزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هذا العدو الجديد ، انها أخذت تناضل الأممية الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة ، فانتصرت عليها في بعض البلاد . غير أن النضال لا يزال سجالاً بين النزعتين ، مادة وجهاراً في بعض البلاد ، ومعنى وخفية في البعض الآخر .

ـ ٢ ـ

إن هذه الاسطر كتبت قبل ست سنوات . والآن ، بعد أن حدث ما حدث في روسيا السوفياتية منذ ذلك التاريخ ، ولا سيما منذ نشوب الحرب العالمية الجديدة ، نستطيع أن نقول : ان « فكرة الوطنية » قد انتصرت على « فكرة الامية » حتى في روسيا السوفياتية نفسها . لأن الدولة المذكورة أخذت تتباعد عن الدعوة الامية شيئاً فشيئاً الى أن قررت حل والغاء « الامية الثالثة » بتاتاً . زد على ذلك أنها تركت نشيدها « الاممي » المعروف ، ذلك النشيد الذي كان يدعو على الدوام جميع عمال العالم الى الاتحاد على اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

وبهذه الصورة قد ثبت مرة أخرى أن « فكرة الاشتراكية » ـ مهما كان نوعها ـ لا تعارض « الفكرة الوطنية » في حد ذاتها ، حتى أن مبادىء الشيوعية نفسها لا ترتبط بـ «فكرة الأممية» بطبيعتها.

ولذلك نستطيع أن نقول : ان فكرة الامية فقدت أكبر وأقوى الدعائم التي كانت تستند اليها ، وفقدت معها حدتها وخطورتها .

مع هذا لا نستبعد أن تبقى فكرة الامية عالقة ببعض الأذهان ، ولهذا نرى من المفيد أن نلفت الانظار الى اضرار هذه الفكرة ، ونعيد هنا الملاحظات التالية عن الوطنية والامية :

ان الانقلاب الصناعي الذي بدأ في أوائل القرن الأخير ـ والذي لم ينته الى الآن ـ زاد في فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة ، وأوصل مشاكل المعيشة الى درجة لم يسبق لها مثيل . لا شك في أن هذا التطور العظيم الذي حدث في الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقية جديدة تضمن للكل حق الحياة والعمل ، بالعدل الذي يقتضيه هذا التطور العميق .

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هذه الاوضاع حق قدرها ، فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمعالجتها. وذلك احدث مجالاً واسعاً أمام أصحاب رؤوس الأموال للاستبداد بحياة العمال بدون تأمل ، وللاسترسال في استغلال أتعابهم بدون إنصاف . وهذه الحالة ولدت الاشتراكية التي أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد ، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن انصاف العمال ، وتمنع تضخم رؤوس الأموال على حساب ضرر الآلاف بل الملايين من العمال وشقائهم . غير أن الحكومات ـ قاومت في بادىء الأمر الحركة الاشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة ، وهذه المقاومة أدت الى حدوث سلسلة ثورات واعتصابات عنيفة ، كما استوجبت تفرع الاشتراكية الى فروع ومذاهب متنوعة ، فاختلفت لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً ، من المعتدلة الى المتطرفة ، ومن الوطنية الى الامية . . .

أنا لا أخالف من يدعو الى الاشتراكية ، حتى أنني لا أعارض من يقول بالشيوعية ، غير أنني أطلب الى هؤلاء ألا يمزجوا دعوتهم هذه بالفكرة الامية ، وألّا يجعلوا حركتهم معادية للنزعة الوطنية . إنني أعتقد أن الاضرار التي تنجم عن الاصغاء الى الدعاية الامية لا تكون متساوية في كل البلاد ، بل انها تزداد أو تنقص ، تبعاً لحالة « الوطنية » فيها :

تصوروا أمة ناهضة ، متحدة ، متصفة بشعور قومي عميق ، ونزعة وطنية شديدة ، قد تأصلت الوطنية والقومية في نفوس ابنائها ، حتى انها دخلت في طور الافراط والتعدي ، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها من الامم . لا شك في أن رياح النزعة الأممية اذا هبت على نفوس أمة كهذه لا تستطيع أن تقتلع شجرة الوطنية من جذورها ، فلا يتعدى تأثيرها حدود بعض الأمور الطفيفة ، من نوع اسقاط الاوراق ، أو كسر الاغصان . ان انتشار فكرة الامية بعض الانتشار بين ابناء تلك الامة لا يزعزع بناء الوطنية زعزعة خطيرة ، وكل ما يعمله ينحصر في كسر ثورة الافراط وتخفيف أطماع التوسع والاستعمار .

ثم تصوروا أمة ـ على عكس ذلك ـ متأخرةفي حضارتها ، متفرقة في سياستها ، مترددة في وطنيتها ، استيقظت من سبات عميق في عهد قريب ، فلم يمض على يقظتها هذه ، الوقت الكافي لاختمار الفكرة القومية في نفوس أبنائها ، فلم يتم بعد « تكون الشعور القومي » و « تأصل النزعة الوطنية » في تلك النفوس . لا شك في أن تأثير رياح « الاممية » على أمة كهذه يكون خطراً جداً . لأنه يوقف اختمار الفكرة القومية في مبادئها ، ويحول دون تكوّن الشعور القومي العام في بدء عهده ، ويميت تباشير النزعة الوطنية الحقة قبل أن تتأصل في النفوس .

انني أعتقد بأن نظرة واحدة الى حالة البلاد العربية والأمة العربية ـ على ضوء هذه الايضاحات ـ تكفي للدلالة دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الاممية ـ ولو انتشاراً قليلاً ـ يكون مضراً جداً ، بل مهلكاً وقتّالاً بالنسبة الى أبناء الضاد .

فيجب علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الاممية الى النفوس في جميع الاقطار العربية .

فقد قال أجدادنا :

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليَّ كرام

أعتقد أن هذا المقال يتضمن احسن وأبلغ الاجوبة على نظرية الاممية الماركسية .

أنا لا أود أن أقول بذلك ، انه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها ، فلا نفكر في ازالة الجور عن أفراد الامة . بل أقول ـ بعكس ذلك ـ بأنه يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الاحوال وازالة الجور بأقصى ما يمكن من السرعة ، على أن لا نخرج في أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية ، وان نعتقد في كل حين .

ان الوطن قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . . .

بيـــن الوحدة الاسلامية والـوحــدة الـــعربيــــة(٦)

لقد قرأت وسمعت ـ الى الآن ـ آراء وملاحظات كثيرة حول المفاضلة « بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية » . وصـرت أتلقى ـ منذ مـدة ـ أسئلة متنوعـة حول هـذه القضية :

لماذا تهتم بالوحدة العربية ، وتهمل الوحدة الاسلامية ؟

ألا ترى أن هدف الوحدة الاسلامية أسمى من هدف الوحدة العربية ؟ وأن القوة التي تحصل من اتحاد المسلمين تكون أعظم من التي تحصل من اتحاد العرب ؟

ألا تسلم بأن الشعور الديني في الشرق أقوى بكثير من الشعور القومي ؟ فلماذا تريد أن نهمـل استغلال ذلـك الشعور القـوي ، وننفق قوانـا في سبيل تقـوية هـذا الشعـور الضعيف ؟

هل تعتقد أن اختلاف اللغات يحول دون اتحاد المسلمين ؟ أفلا تلاحظ أن مبادىء الشيوعية والاشتراكية والماسونيـة وغيرهـا تجمع بـين أناس اختلفت لغـاتهم وأجناسهم وبلادهم وأقاليمهم ، ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا ويتقاربوا ويجتمعوا على خطة واحدة ومبدأ واحد ؟ أفلا تعرف بأن كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد بأن المسلم الهندي ، أو الياباني ، أو الاوروبي أخ له ، كأخيه المسلم الذي يعيش معه جنباً الى جنب ؟ ففيم استحالة تحقيق الوحدة الاسلامية ؟

يقول البعض : ان الوحدة الاسلامية أقوى من كل وحدة سواها ، وأن تحقيقهـا

(٦) نشرت في مجلة: الرسالة، (١٩٣٩).

أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى . ما رأيك في هذا القول ؟

ويدعي البعض ـ مخطئاً ـ : « ان فكرة الوحدة العربية دسيسة يقصد من ورائها الحيلولة دون توسع فكرة الوحدة الاسلامية ، وذلك ليفصل بعض أقطار العالم الاسلامي ، وتيسير ادامة السيطرة عليها » ماذا تقول في هذا الادعاء ؟

. . . لقد سمعت وقرأت ـ ولا أزال أسمع وأقرأ ـ أسئلة كثيرة من هذا القبيل ، خلال محادثات شفهية ، أو في رسائل خصوصية أو في كتب مفتوحة .

فرأيت أن أخصص هذا المقال لمعالجة هذه المسائل معالجة وافية ، لأشرح رأيي فيها بصراحة كافية .

ـ ١ ـ

أعتقد بأن القضايا الاساسية التي يجب درسها وحلها عند التفكير في « المفاضلة بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية » تتلخص فيما يلي :

هل « الوحدة الاسلامية » من الآمال المعقولة التي يمكن تحقيقها ، أم هي من الاحلام الطوبائية التي لا يمكن تحقيقها ؟

وعلى فرض الشق الأول : أتحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية ؟

وهل يوجد شيء من المنافاة بين هاتين الوحدتين ؟

وهل من سبيل الى تحقيق الوحدة الاسلامية ، دون تحقيق الوحدة العربية ؟

عندما نقدم على إعمال الذهن وانعام النظر في مثل هذه المسائل يترتب علينا ـ قبل كل شيء ـ أن نحدد ما نعنيه من الوحدة الاسلامية والوحدة العربية بوضوح تام ، وأن نعين نطاق شمول كل واحد من هذين التعبيرين بصراحة كاملة :

من الأمور التي لا تحتاج الى شرح ، أن الوحدة العربية تتطلب ايجاد وحدة سياسية من الاقطار العربية المختلفة التي يتكلم أهلوها باللغة العربية ؛ وأما الوحدة الاسلامية فتتطلب ـ بطبيعة الحال ـ ايجاد وحدة سياسية من البلاد الاسلامية المختلفة التي يدين أهلوها بالديانة الاسلامية ، بالرغم من اختلاف لغاتهم واجناسهم .

ومن المعلوم أن العالم الاسلامي يشمل : الاقطار العربية ! وتركية وايران ، والافغان ، وتركستان ، مع قسم من الهند ، وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس ، وافريقية الشمالية مع قسم من افريقية الوسطى . . . بقطع النظر عن بعض الكتل المتفرقة في أوروبا وآسيا : في ألبانيا ، ويوغسلافيا وبولندة والصين .

ولا حاجة لبيان أن الاقطار العربية تشمل قسماً من هذا العالم الفسيح .

ان كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه ـ ويتصور خريطة العالم الاسلامي ، ويلاحظ موقع العالم العربي فيها ـ يضطر الى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الاسلامية ؛ وبأن هذه الوحدة الأخيرة لا يُمكن أن تتحقق ـ على فرض امكان تحققها ـ الا بالوحدة العربية .

اذ لا يمكن لأي عاقل أن يتصور حصول اتحاد بين القاهرة وطهران وكابل وحيدر آباد وبخارى ، وكاشغر وفاس وتمبكتو . . . دون أن يحصل اتحاد بين القاهرة وبغداد ودمشق ومكة وتونس . لا يمكن لأي عاقل أن يقول بامكان اتحاد الترك والعرب والفرس والملايو والزنج دون اتحاد العرب انفسهم .

لو كان العالم العربي أكبر سعة وأكثر شمولاً من العالم الاسلامي ، ـ بعكس ما هو الواقع الآن ـ لأمكن أن نتصور وحدة اسلامية دون وحدة عربية ؛ ولجاز أن نقول إن تحقيق الوحدة الاسلامية أسهل من تحقيق الوحدة العربية . غير انه لما كان الأمر بعكس ذلك تماماً ، فلا مجال منطقياً لمثل هذه الاقوال والتصورات بوجه من الوجوه .

إن هذه الحقيقة يجب ألا تغرب عن بالنا ، عندما نفكر ونتكلم في أمر الوحدة الاسلامية والوحدة العربية .

ان فكرة الوحدة الاسلامية أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية ، غير أنه ليس من الممكن أن نقول بالوحدة الاسلامية دون أن نقول بالوحدة العربية .

ولهذا السبب يحق لنا أن ندعي أن كل من يعارض الوحدة العربية ، يكون قد عارض الوحدة الاسلامية أيضاً . وأما من عارض الوحدة العربية ، باسم الوحدة الاسلامية أو بحجة الوحدة الاسلامية ، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة .

ـ ٢ ـ

بعد اثبات هذه الحقيقة ، ـ التي لا مجال منطقياً للاختلاف في شأنها ـ ، يجدر بنا أن نلتفت الى حقيقة ثانية ، لا تقل أهمية عنها :

يجب علينا ألا ننسى أن المقصود من تعبير « الوحدة » في هذا المقام هو الوحدة السياسية ؛ كما يجب علينا أن نلاحظ على الدوام ان مفهوم « الوحدة الاسلامية » يختلف عن مفهوم « الاخوة الاسلامية » اختلافاً كبيراً .

فإن الاتحاد شيء والتعاطف شيء آخر ؛ والاتحاد السياسي شيء والاتفاق على مبدأ من المبادىء شيء آخر .

فالدعوة الى الوحدة الاسلامية ، تختلف بهذا الاعتبار عن الدعوة الى اصلاح احوال الاسلام ؛ كما تختلف عن الدعوة الى زيادة التفاهم والتقارب والتضامن بين المسلمين .

ولذلك نستطيع أن نقول : ان من يتكلم عن مبدأ الاخوة الاسلامية ، ومن يبحث عن فوائد التفاهم بين المسلمين ، لا يكون قد برهن على امكان تحقيق الوحدة الاسلامية .

وبعكس ذلك ، من لا يسلم بامكان تحقيق الوحدة الاسلامية لا يكون قد أنكر مبدأ الاخوة الاسلامية ، أو قد عارض مساعي النهوض والتفاهم بين المسلمين .

فكل ما يقال عن مبدأ الاخوة لا يكون دليلاً كافياً على امكان تحقيق الوحدة الاسلامية .

وأما الاستشهاد على امكان الوحدة الاسلامية بالماسونية ، أو الاشتراكية أو الشيوعية ، فليس موافقاً للعقل والمنطق بوجه من الوجوه ؛ لأن الماسون لم يؤلفوا وحدة سياسية ؛ والأحزاب الاشتراكية في الممالك الاوروبية المختلفة لم تتحد لتكوين دولة واحدة ؛ حتى الشيوعية نفسها لم تكون دولة جديدة . . . بل حلت محل الدولة الروسية القيصرية . . .

فيجب علينا أن نميّز بين مسألة الاخوة الاسلامية ومسألة الوحدة الاسلامية تمييزاً صريحاً ، وأن نفكر في امكان أو عدم امكان تحقيق الوحدة الاسلامية بمعناها السياسي تفكيراً مباشراً .

- ٣ -

اذا ألقينا نظرة عامة على التاريخ ، واستعرضنا تأثيرات الأديان في تكوين الوحدات السياسية ، وجدنا أن الأديان العالمية لم تتمكن من توحيد الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة الا في القرون الوسطى ، وذلك في ساحات محدودة فقط ، ولمدة قصيرة من الزمن فحسب .

فإن الوحدة السياسية التي حاولت الكنيسة المسيحية تكوينها لم تستطع أن تجمع العالم الارثوذكسي مع العالم الكاثوليكي في وقت من الأوقات ، كما أن الوحدة السياسية التي سعت لتكوينها البابوية في العالم الكاثوليكي نفسه لم تعمر مدة طويلة من الزمن .

وكذلك كان الأمر في العالم الاسلامي : ـ فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الاسلام لم تقو على تقلبات الايام مدة طويلة . والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية ، حتى عند بلوغها أوج قوتها وقمة عظمتها . كما أن البلاد التي كانت تخضع لسلطان الخلافة المذكورة نفسها ، لم تحافظ على وحدتها السياسية

بصورة فعلية مدة طويلة ، ولم يمض وقت طويل على تأسيس الخلافة المذكورة الا وقد أصبحت سلطتها على بعض الاقطار معنوية أكثر منها مادية ؛ فلم تقو على الحيلولة دون انفراط عقد الاقطار المذكورة ، وتحولها الى وحدات سياسية عديدة مستقلة بعضها عن بعض بصورة فعلية .

ومما هو جدير بالانتباه في هذا الصدد ، أن انتشار الدين الاسلامي في بعض الاقطار قد تم بعد أن فقدت الخلافة الاسلامية وحدتها الفعلية وقوتها الحقيقية ؛ حتى أن هذا الانتشار جرى في بعض الاقطار بصورة مستقلة عن تأثير السلطات السياسية ، وذلك على أيدي دعاة من التجار والشيوخ والدراويش ، فالعالم الاسلامي بحدوده الواسعة الحالية ، لم يكوِّن وحدة سياسية في وقت من الأوقات .

فالوحدة السياسية التي لم تتحقق في القرون الماضية ـ في عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلائق السياسية ؛ وفي أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحي الأعمال والافكار . . . ـ ليس من الممكن أن تتحقق في هذا القرن ، بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وتعضلت المشاكل السياسية ، وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات .

ـ ٤ ـ

إنني أعرف أن ما قررته هنا لا يروق الكثيرين من علماء الاسلام ؛ اعرف أن الدلائل التاريخية التي ذكرتها آنفاً لا تستطيع أن تؤثر في معتقد الكثيرين من رجال الدين ، وذلك لأنهم قد تعودوا التكلم في هذه المسائل دون تذكر الحقائق التاريخية وملاحظة المصورات الجغرافية ؛ كما أنهم لم يألفوا التمييز بين مدلول « الاخوة الدينية » ومدلول ـ « الرابطة السياسية »؛ بل انهم نشأوا على المزج بين مبدأ « الاخوة الاسلامية » بمعناها الاخلاقي ، وبين فكرة « الوحدة الاسلامية » بمعناها السياسي .

أنا لا أرى مبرراً للسعي وراء اقناع هؤلاء بخطأ اعتقادهم في هذا الأمر ؛ غير أني أرى من الضروري أن أطلب اليهم الا ينسوا مقتضيات العقل والمنطق في هذا السبيل : لهم أن يحافظوا على اعتقادهم في إمكان تحقيق الوحدة الاسلامية ، غير أن عليهم أن يسلموا في الوقت نفسه بضرورة السعي الى الوحدة العربية ، على الاقل ، كمرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الاسلامية التي يعتقدون بها ؛ عليهم ـ على كل حال ـ ألا يعارضوا المساعي التي تبذل في سبيل تحقيق الوحدة العربية ، بحجة خدمة الوحدة الاسلامية التي يدعون اليها .

واني أكرر هنا ما كتبته آنفاً : ان من يعارض الوحدة العربية بحجة الوحدة الاسلامية

يكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة ؛ وأقول بلا تردد : ان مخالفة المنطق الى هذا الحد لا يمكن أن تتأتى الا من الخداع أو الانخداع .

خداع بعض الشعوبيين الذين لا يرتاحون الى نهوض الأمة العربية ، فيسعون الى تهييج الشعور الديني ضد فكرة الوحدة العربية .

وانخداع بعض السذج الذين يميلون الى تصديق كل ما يقال لهم مقروناً باسم الدين ، دون أن ينتبهوا الى ما قد يكون وراء هذه الأقوال من المقاصد الخفية . . .

فأرى من واجبي أن ألفت أنظار جميع المسلمين العرب الى هذا الأمر الهام ، وأطلب اليهم ألّا ينخدعوا بأوهام الشعوبيين في هذا الباب .

- ٥ -

لعلّ أغرب وأخدع الآراء التي أُبديت حول قضية « الوحدة العربية والوحدة الاسلامية » هو الرأي القائل بأن فكرة الوحدة العربية خلقت لمحاربة « الوحدة الاسلامية » ، وذلك لفصل بعض الاقطار الاسلامية تسهيلاً لادامة السيطرة عليها .

انني لا أستطيع أن أتصور رأياً أكثر بعداً عن حقائق التاريخ والسياسة ، وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب .

فإن التفاصيل التي ذكرتها آنفاً عن علاقة الوحدة الاسلامية بالوحدة العربية تكفي لاظهار خطأ هذه المدعيات من حيث الاساس .

مع هذا ، أرى أن أضيف الى تلك التفاصيل بعض الملاحظات لزيادة البرهان والايضاح :

لا ينكر أن الانكليز سايروا الحركة العربية وصانعوها أكثر من سائر الدول . وما ذلك الا لأنهم أكثر عملية في السياسة ، وأسرع فهماً لنفسيات الأمم وحقائق الاجتماع . . . إنهم عرفوا القوة الكامنة في الفكرة العربية قبل غيرهم ؛ فرأوا أن يسايروها بعض المسايرة ويصانعوها بعض المصانعة ـ بدلاً من محاربتها مباشرة ـ ليدفعوا ضررها عنهم ويجعلوها أكثر ملاءمة لمصالحهم .

يجب أن نعرف جيداً أن السياسة الانكليزية سياسة عملية ، تتكيف مع الظروف ، وتنتهز الفرص على الدوام ؛ ويجب الا ننسى أن بريطانيا العظمى هي التي خلصت الدولة العثمانية ـ التي كانت صاحبة الخلافة الاسلامية ـ من استيلاء الروس عدة مرات وهي التي كانت أوقفت الجيوش المصرية في قلب الاناضول ، لتخليص مقر الخلافة الاسلامية من

استيلاء تلك الجيوش الظافرة ، وهي التي كانت حالت دون اتحاد مصر مع سورية في عهد محمد علي الكبير .

فكل من يتهم فكرة الوحدة العربية بأنها دسيسة اجنبية ، يكون قد قال بخدعة ليس وراءها خدعة ، ووقع في انخداع ليس وراءه انخداع .

يجب أن نعلم حق العلم أن فكرة الوحدة العربية فكرة طبيعية ، لم يوجدها موجد ؛ انها نتيجة طبيعية لوجود الامة العربية نفسها . هي قوة اجتماعية ، تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية ، وتاريخ الامة العربية ، واتصال البلاد العربية . فلا يستطيع أحد أن يدعي - بصورة منطقية - أن الانكليز هم الذين خلقوا فكرة الوحدة العربية ، الا اذا استطاع أن يبرهن على أن الانكليز هم الذين خلقوا اللغة العربية ، وأوجدوا تاريخ الامة العربية ، وكونوا جغرافية البلاد العربية .

إن فكرة الوحدة العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية ،لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبتدعها الافراد ، أو تستطيع أن تخلقها الدول .

إنها ظلت كامنة - شأن الكثير من القوى الطبيعية والاجتماعية - منذ عدة قرون ، لأسباب وعوامل تاريخية كثيرة ، لا مجال لشرحها هنا ؛ غير أن كل شيء يدل على أن دور كمونها قد انتهى ، وأن تيارها أخذ يظهر للعيان ، وصار يتدفق شيئاً فشيئاً .

ولا شك في أن تيار هذه الفكرة سيزداد تدفقاً من جميع النفوس العربية بسرعة متزايدة تزايداً هائلاً . وسوف لا يلبث حتى يغمر جميع البلاد العربية ، ويعيدها الى مجدها السالف ونضرتها الأولى ، بل الى ما هو أخصب وأسمى منها .

هذا ما يجب أن يكون ايمان كل متنور من الناطقين بالضاد .

بين الماضي والمستقبل (٧)

أيها السادة :

يسرني أن أحيي فريق الكشاف العربي تحت سقف هذا البناء القديم ، باسم دائرة الآثار القديمة .

إنني أحيي فريق الكشاف العربي باسم دائرة الآثار القديمة ، مع علمي بأن الكثيرين من الحاضرين سيستغربون قولي هذا ، وسيتساءلون : ما شأن الآثار القديمة بالأعمال الكشفية ؟

في الواقع أيها السادة ، ان الكشاف يمثل « الشباب المتجدد » ، وأعمال الكشافة كلها بمثابة « استعداد للمستقبل » على حين أن هذه البناية هي « موئل القديم » ، وكل ما فيها « مثال الماضي ومرآة التاريخ » ، فجمع الكشافة في هذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة ، يظهر في الوهلة الأولى بمثابة « الجمع بين الاضداد » ، مثل « الجمع بين الماضي والمستقبل » .

غير أننا ، أيها السادة ، اذا تعمقنا في البحث قليلاً ، نضطر الى التسليم بأن الماضي والمستقبل ليسا متناقضين الا من حيث المعنى اللغوي ؛ وأما من وجهة « العمل الاجتماعي » فانهما مترابطان ومتلازمان . فان الماضي منبع المستقبل على الدوام ، كما أنه من عوامل الدفع الى الامام، في كثير من الاحيان. ولا سيما في حياة الامم التي تستفيق من سباتها وتنزع الى النهوض بعد الرقود.

---

(٧) خطاب القي على فريق الكشاف العربي في قاعة متحف الآثار العربية ببغداد ، ونشر في مجلة : الرسالة، (١٩٣٧).

لقد قال أحد المفكرين أن الاموات لا يرقدون في المقابر في حقيقة الأمر بل انهم لا يـزالون يعيشـون في نفوس الاحيـاء ، ويسيطرون عـلى الكثير من أعمـالهم في كثير من الاحيان . إن هذا القول يحتوي على قسط كبير من الحقيقة ، لا سيما في حيـاة الامم . فلأجل أن نقتنع من ذلك جيداً ، يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على أهم مقومات الامم :

إن كل أمة من الامم تكون شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور وتمتاز ببعض النزعات والميول .

إن حياة الامة تقوم بلغتها ، بوجه عام ؛ اما الموت بالنسبـة الى الامة فليس ـ في حقيقة الأمر ـ الا في الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الامة التي تدخل تحت حكم دولة اجنبية تفقد استقلالها وحريتها ؛ وتصبح مستعبدة لها ؛ ولكنها لا تفقد حياتها ، ما دامت محافظة على لغتها . فقد قال أحد المفكرين : « ان الامة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبـه السجين الذي يمسك بيده مفتاح باب سجنه . . . » انها تبقى حية ، ما بقيت محافظة على لغتها ؛ انها تبقى مستعدة للحرية والاستقلال ، ما دامت متمسكة بلغتها . وأما اذا فقدت هذه اللغة ، فتكون قد فقدت الحياة ؛ تكون قد اندمجت في الامة المستولية عليها ، وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان ؛ انها تكون قد زالت من عالم الوجود ، وبتعبير اقصر « ماتت » بكل معنى الكلمة .

إن اللغة تكون روح الامة وحياتها وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقـوماتهـا . أليست ميراث الاجيال الماضية ، وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا أن نقول انها تربط الماضي بالمستقبل على الدوام ؟

*

هذا ، ويجدر بنا أن نلاحظ ، أيها السادة ، علاوة على كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود . فإن هناك شيئاً آخر ، لا يقل أهمية عن الحياة ، وان كان تابعاً لها : الا وهو الشعور . ان للأمم شعوراً ، كما للأفراد . فالشعور القومي بالنسبة الى حياة الامم ، مثل الشعور الشخصي بالنسبة الى حياة الأفراد .

قلنا أن حياة كل أمة من الامم تقوم بلغتها ؛ ويجب أن نعرف في الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها .

فالأمة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها تكون بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد غاطّ في النوم ، أو بمثابة مريض في حالة الاغماء . انه لا يزال على قيد الحياة ، غير أن حياته

هذه لا تكتسب قيمة الا اذا استيقظ من نومه ، واستعـاد الشعور الـذي فقده مـدة من الزمن .

فيحق لنا أن نقول : ان اهمال التاريخ القومي يكون بمثابة الاستسلام الى الذهول والكرى ، وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور .

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ، ويستفيدون منها على الدوام ؛ فهم عندما يستولون على أمة من الامم ؛ يبذلون قصارى جهدهم لابعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . انهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الامة وتنويمها ، عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومي . انهم يعرفون جيداً أن الشعور القومي عند الامم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤ ل ، كلما اسدل النسيان سدوله على التاريخ القومي الى أن ينعدم تماماً ، بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً .

أما عودة الشعور القومي الى مثل هذه الامم المحكومة فلا تتم الا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد عند تلك الامم تبدأ ـ بوجه عام ـ بتـذكر المـاضي واستلهام التـاريخ . استعـرِضوا تـواريخ استقلال الامم التي كانت مغلوبة على أمرها ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستعباد ، تفهموا جيداً أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان الى السؤ دد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الايمان بمستقبل الامة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شدة وحماسـة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة .

ومما يجب أن يلفت انظارنا في هذا المضمار ، ان خطة استلهام الماضي والاستفادة من التاريخ تظهران للعيان حتى في أعمال الامم التي تقوم بثورات عنيفة ، وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب ، بصورة جذرية وفورية . إن تلك الامم تثور في حقيقة الأمر على الماضي القريب وحده ، وتحاول خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضي البعيد . انعموا النظر في تاريخ ثورات ووثبات تلك الامم ـ مثل اليابان وتركيا الحديثة ـ تجدوا فيه أيضاً بجانب حركات التجديدات الجـذرية ، اهتمـاماً متـزايداً بـالابحاث التـاريخية ، وتغلغـلاً مستمراً في استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وايجاد النزعات التجديدية .

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات الى الماضي ، ليس من الخطط الخاصة بالأمم التي كانت في حالة تأخـر وسبات ؛ بـل هي من الأمور التي تشمـل جميع الامم بـدون استثناء . تعمقوا في دراسة أحوال أرقى الامم العصرية ، وأنعموا النظر في أحسن الشوارع والميادين في أرقى المدن الحديثة ، تجدوا في جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضي والتواريخ ؛

تجدوا في جميعها عدداً كبيراً من الانصاب والتماثيل والالواح التذكارية ، وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات ، يقصد منها تذكير الناس بالماضي وترسيخ التاريخ في الاذهان .

ولهذه الأسباب كلها أقول في كل حين : ان الماضي منبع فيّاض للمستقبل ، والتاريخ قوة مهمة في حياة الامم .

ولهذه الملاحظات ، رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربي أن يذهب الى سامراء ليقضي يوماً كاملاً في التجول بين اطلالها ، ويطلع على الآثار الباقية من عهد الامبراطورية العباسية . ثم يعود الى هنا ليجتمع معنا في هذه البيئة التاريخية ويتأمل مدة في ماضي أمتنا العزيزة ويستمد من ذكريات هذا الماضي قوة جديدة في جهوده القادمة . ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة .

*

أيها السادة ، اني لا أحب المغالاة ، بل انزع دائماً الى مجابهة الحقائق من كل وجوهها . وبعد أن شرحت لكم ما أعتقده من خطورة الدور الذي يلعبه التاريخ في حياة الامم ، أرى من واجبي أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً ، لكي أحذركم منها :

إن الحياة الاجتماعية في غاية من التعقد ، والعوامل الاجتماعية في منتهى التشابك ؛ ولذا قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الاطلاق ، ومجرد عن الشوائب والاضرار في كل الاحوال . ان الفوائد والاضرار في الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب فاجتناء الفوائد مع توقي الاضرار ، مما يحتاج الى يقظة كبيرة وانتباه شديد في معظم الاحوال .

إن تأثير التاريخ والماضي في حياة الامم لا يشذ عن هذه القاعدة العامة ؛ فانه أيضاً قد يصبح مضراً في بعض الاحوال .

فان التاريخ يكون مفيداً عندما يفرغ على شكل « قوة دافعة » تحركنا الى الامام ، كما ذكرته لكم الى الآن ؛ غير أنه يصبح مضرا حين يأخذ شكل « قوة جاذبة » تدعونا الى العودة الى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضي هدفاً نتوجه نحوه ؛ ونسعى للعودة اليه ، بل يجب علينا أن نجعل منه نقطة استناد نستند اليها في اندفاعنا الى الامام ؛ يجب علينا أن نكوّن منه قوة فعّالة حافزة ، تدفعنا نحو المستقبل الجديد ؛ وبتعبير أقصر ، شعارنا في هذا الباب يجب أن يكون : « تذكر الماضي ، مع التطلع الى المستقبل على الدوام » .

واسمحوا لي أن أشرح لكم قصدي من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة :

كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلّ السير التي سجلها التاريخ . فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام . ولكن لماذا ، وبأي قصد ؟ أبقصد الحصول على دروس في فنون التعبئة والحرب ؟ كلا فان الخطط الحربية التي كانت تضمن النجاح والنصر في عصر خالد بن الوليد ، لا يمكن أن تفيد في هذا العصر بوجه من الوجوه . ولا مجال للشك في أن الخطط الحربية التي تضمن النصر والنجاح في عصر الدبابات والطيارات والغواصات ، في عصر المدافع الضخمة والقذائف الهدامة ، والغازات الخانقة ، تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التي كانت تؤدي الى النصر في العصور السالفة ؛ فكل من يحاول أن يجد في خطط خالد بن الوليد دروساً في فنون الحرب قابلة للتطبيق في العصر الحاضر ، يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه .

غير أنه ، أيها السادة ، يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائل والقوى المادية وحدها ، بل انها تحتاج الى قوى معنوية متنوعة ، علاوة على القوى المادية ، أهمها : الوطنية الصادقة ، والايمان بامكان النصر ، مع الاقدام على احرازه بحزم وثبات ، وجرأة وشجاعة ، لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية . إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً في الحروب في جميع العصور ، مهما كانت الوسائل المادية المستعملة خلالها ، سواء أكانت من نوع السهام أو القذائف أم الجمال أم الطيارات . إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا للقوة المعنوية ؛ واذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد بن الوليد فيجب أن ندرسها لكي نستفيد من تلك القوى المعنوية . واذا ما بحثنا عنها فيجب أن نبحث بقصد استثارة قوى مماثلة لها ، لا بقصد محاولة الحرب على الطريقة التي مشى خالد بن الوليد عليها .

وكذلك كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا الى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ بوجه من الوجوه ؛ فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات ، نطلع عليها ونتذكرها على الدوام . ولكن لماذا ؟ وبأي قصد ؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب في مداواة الأمراض ؟ لا مجال للشك في أن ذلك يكون في منتهى السخافة . يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب ، لا بأمل أن نجد في اكتشافاتهم ما يفيدنا في أمر التطبيب والمداواة ، بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام ولنزداد ايماناً بقابليات امتنا الكامنة ؛ ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم الغالية . إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبيرة ، ومشوا في مقدمة العالم في هذا المضمار قروناً عديدة . . . ان خدمات هؤلاء يجب أن تولد في نفوسنا طموحاً لاحراز مكانة عالية في الطب الحديث ، مثل المكانة التي كان أحرزها هؤلاء في العصور التي عاشوا وعملوا فيها .

ولذلك قلت : انه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية تثير في نفوسنا نزعات التقدم الى الامام ، وتحفزنا نحو مجد المستقبل على الدوام . . .

أما أهم النزعات التي يجب أن نستلهمها من التاريخ ، فهي في نظري الايمان بحيوية الامة العربية ، وبامكان حصولها على مجد جديد ، لا يقل شأناً عن المجد الذي كانت نالته في سالف العصور . . .

اننا في حاجة الى مثل هذا الايمان في هذا الزمان ، أكثر من أي زمان آخر ، لأن المصائب انصبت على العالم العربي من كل حدب وصوب . ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب ، تفتح باباً الى تسرب الفتور والقنوط الى القلوب التي لا تتزود بالأمل الضروري ، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة .

ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أهم دواعي التقاعد والعجز ؛ ولهذا السبب نستطيع أن نقول : ان تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط ، وتزويدها بالامل والايمان ، يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين ، ولا سيما في الظروف التي أحاطت بالعالم العربي خلال هذه السنين الأخيرة .

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمتي ؛ أود أن أذكركم باحدى الاساطير اليونانية ، وهي أسطورة باندور .

باندور كانت جمة الخصال ، تكونت من عطايا جميع الآلهات . ان كل آلهة من الآلهات الموجودة الى ذلك الحين ، أعطتها شيئاً من خصالها ولهذا السبب سميت هذه الآلهة الجديدة باسم « باندور » بمعنى « عطية الكل » .

عندما غضب جوبتر على هر كول ، وأراد أن ينتقم منه ، فكر في اغرائه بواسطة باندور : سلمها علبة سحرية ، وطلب اليها أن توصلها اليه دون أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ؛ غير أنها لم تستطع أن تتغلب على حب الاستطلاع في نفسها ، ففتحت العلبة في طريقها ، وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر في الارض بسرعة العاصفة ، مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة غطاء العلبة بسرعة . . . غير أنها ، الى أن تمكنت من ذلك ، كان قد خرج من العلبة جميع الشرور ، ولم يبق فيها الا شيء واحد . . وكان ذلك الذي بقي في العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور . . . هو الأمل . . .

إن حالة العالم العربي الآن ، أيها السادة ؛ تشبه الحالة التي حدثت عند انفتاح علبة

باندور . . . لقد انتشرت المصائب والشرور في العالم العربي ، ولم يبق بين أيدي ابنائه شيء غير (الأمل) .

فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل . . . هو من أثمن عوامل العمل .

فيجب علينا أن نحرص عليه كل الحرص ، فلا نترك سبيلاً الى تسلل القنوط الى القلوب . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور ، يحفظ الامل .

ولا يكتفي بحفظه فحسب ، بل يسعى الى تغذيته وتقويته ، الى أن يتحول الى ايمان لا يتزعزع ، يدفعنا الى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص . . .

بين مصـــر والعروبـــــة(٨)
كتاب مفتوح الى الدكتور طه حسين

أيها الاستاذ :

نشرت مجلة المكشوف البيروتية حديثاً جرى بينكم وبين جماعة من الشبان العرب ، على ظهر باخرة تمخر عباب البحر الابيض المتوسط . قلتم في خلال ذلك الحديث إنكم تنادون « بتوحيد برامج التعليم في جميع الاقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها » ، وترون «من المفيد ان يكون تعاوناً اقتصادياً، وحتى تحالفاً عسكرياً» بين تلك الاقطار ؛ غير أنكم لا ترضون بوحدة سياسية ، سواء أكانت « بشكل امبراطورية جامعة » أم على طراز « اتحاد مشابه للاتحاد الامريكي أو السويسري » . وعلّلتم آراءكم هذه بقولكم : « إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وأنها ستبقى كذلك ، بل يجب أن تبقى وتقوى . . . » .

أعترف بأنني قرأت هذه الآراء بدهشة غريبة ، لأنني استبعدت صدورها منكم كل الاستبعاد ؛ وقلت في نفسي : « لعل الكاتب نقلها على غير حقيقتها » ، وأعدت قراءتها بامعان . ولكني لمحت في عدة نقاط منها أسلوب بيانكم المعروف ، فقلت « لعل الدكتور أراد أن يمتحن هؤلاء الشبان ، ويتأكد من مبلغ ايمانهم بالقضية ، ويسبر غور درسهم لوجوهها المختلفة ؛ فالآراء التي أدلى بها انما كانت من نوع الآراء الجدلية التي يقصد منها حمل المخاطب على التعمق في التفكير » . فوجدت نفسي ـ تجاه هذه الملاحظات ـ بين عاملين مختلفين ؛ عامل يدفعني الى الاسراع في مناقشة هذه الآراء لكيلا أترك مجالاً لزعزعة إيمان بعض الشبان ، بتأثير سلطتكم الأدبية السامية ، وأسلوب بيانكم الأخّاذ . وعامل يدفعني الى التريث في الأمر ، لكي أتأكد من صحة الحديث المعزو إليكم ، فتريثت لذلك

(٨) نشرت في مجلة : **الرسالة**، (١٩٣٨).

مدة من الزمن . ولما لم أطلع على تصريح أو تصحيح صدر منكم ، رأيت من الواجب علي أن أقدم على المناقشة ، بدون أن أنتظر مدة أطول .

فاذا كان في الحديث الذي نسب اليكم شيء من البعد عن الواقع فأرجو أن تعتبروا كلمتي هذه بمثابة رد على الآراء المبسوطة في ذلك الحديث ، بقطع النظر عن قائلها ، واذا كان فيه شيء من قصد المناقشة الجدلية ـ كما أسفلت ـ فأرجو أن تعتبروا هذه السطور بمثابة صفحة من صفحات تلك المناقشة الجدلية .

ـ ١ ـ

قلتم للشبان الذين تحدثتم اليهم : « ان المصري مصري قبل كل شيء ، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف » .

فاسمحوا لي أن أسألكم : هل الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية ؟ أنا لا أتردد في الاجابة على هذا السؤال بالنفي . لأنني أعتقد بأن دعوة المصريين الى الاتحاد مع سائر الاقطار العربية ، لا تتضمن ـ بوجه من الوجوه ـ حثهم على التنازل عن « المصرية » ، ان دعاة الوحدة العربية لم يطلبوا من المصريين ـ ضمناً ولا صراحة ـ أن يتنازلوا عن مصريتهم ، بل انهم يطلبون اليهم أن يضيفوا الى شعورهم المصري الخاص شعوراً عربياً عاماً ، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية ، فهل لديكم ما يبرهن على أن ذلك من نوع « طلب المحال » ؟ وهل لديكم ما يدل على أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان ، وعنصران متعاكسان لا يمتزجان ؟

وقد قلتم لمخاطبيكم : « ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة ، فالفرعونية متأصلة في نفوسهم » . ثم أضفتم الى ذلك حكماً بتّاراً ، فقلتم : « وستبقى كذلك . . . » .

فهل تسمحون لي أن أستوضحكم ما تقصدونه من كلمة « الفرعونية » ؟ هل تقصدون منها الأخذ بحضارة الفراعنة ؟ أم الاعتزاز بثقافة الفراعنة ؟ أم تقصدون منها بعث اللغة الفرعونية والآداب الفرعونية ، والديانة الفرعونية ، والسياسة الفرعونية ؟

أنا لا أستطيع أن أشك في انكم لم تقصدوا منها الحضارة أبداً ، لأنكم لستم ، بدون ريب ، ممن يقبلون لمصر ، ولغير مصر حضارة في هذا العصر غير الحضارة العلمية الحالية ، كما أنني لا أستطيع أن أشك في انكم لم تقصدوا من هذه الكلمة « الديانة الفرعونية » أيضاً .

هذا ومن جهة أخرى أجد في مناداتكم « بتوحيد برامج التعليم في جميع الاقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها » دليلاً قاطعاً على انكم لم تقصدوا منها الثقافة الفرعونية أو اللغة الفرعونية أيضاً .

فماذا تقصدون منها اذن ؟ السياسة ؟ فهل تقصدون أن « السياسة الفرعونية » تتطلب « الاكتفاء بحدود مصر الحالية » فترفض « التوسع » بكل أنواعه ، حتى ولو كان عن طريق قبول انضمام الاقطار العربية ؟

إنكم أشرتم في حديثكم الى الآثار الباقية من عهد الفراعنة بشكل يستوقف الانظار ، وأردتم أن تدعموا آراءكم بجلال تلك الآثار إذ قلتم :

« لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها ، والا كان معنى طلبكم : أهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام ، وتغاضي عن جميع الآثار التي تزين متاحفك ومتاحف العالم ، وأنسي نفسك واتبعينا » .

يظهر من هذه التأويلات انكم تودون أن تخلقوا للفكرة العربية خصوماً من الآثار القديمة ، وأن تضعوا في سبيل تيار هذه الفكرة سدوداً من الرموس والأطلال . فهل فاتكم أن التعارض والتصادم لا يحدثان الا بين الاشياء التي تسير على مستوى واحد ، في عالم واحد ، وأن الفكرة العربية التي تعمل في القرن العشرين ـ للأجيال القادمة ـ لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثاً من ماض سحيق ، يرجع الى أكثر من خمسة آلاف من السنين ؟

إن مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة ، دون أن تخرب أبا الهول ، وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تهدم الاهرام . وجميع آثار الفراعنة التي زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم ، لم تولد نزوعاً للعودة الى الديانة التي أوجدت تلك المآثر الخالدة ، ولا حركة ترمي الى بعث اللغة التي رافقتها خلال قرون طويلة . فهل من موجب لطلب هدم الاهرام وتناسي الآثار لأجل تحقيق الوحدة العربية ؟

إن الاهرام ـ مع جميع الآثار الفرعونية ـ لم تمنع مصر من الاتحاد مع سائر الاقطار العربية اتحاداً تاماً في ساحة اللغة ، فهل يمكن أن تحول دون اتحادها مع تلك الاقطار في ساحة السياسة أيضاً ؟

كلا أيها الاستاذ . . . ان التيارات القوية والعميقة التي جرفت حياة مصر في اتجاهات جديدة منذ عشرات القرون ، والتي أخرجتها من ديانتها القديمة وأنستها لغتها الاصلية ـ بالرغم من وجود الاهرام وقيام أبي الهول ـ ، سوف لا تحتاج الى هدم أو ستر شيء من آثارها القديمة لتجرفها نحو السياسة التي يؤمن بها دعاة الوحدة العربية . . . ولا سيما أن هذه السياسة ليست الا نتيجة طبيعية للغة مصر الحالية .

إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا ولن يقولوا لمصر « انسي نفسك » بل انهم يقولون وسيقولون لها « استزيدي من ثروة نفسك » بالعمل على توحيد أبناء لغتك . . . انهم لم يقولوا ولن يقولوا لها « اتبعينا » ، بل يقولون وسيقولون لها « سيري الى الأمام ونحن نتبعك على الدوام . . . »

- ٢ -

سألتم خلال الحديث : « تريدون أن تتحقق الوحدة العربية ، فعلى أي أساس علمي تنادون بها ؟ » ، ثم قلتم : « تعالوا معي نستعرض الروابط التي تصل مصر بالاقطار العربية الأخرى » ، فاسمحوا أن أشترك معكم في الاستعراض لأناقشكم في أهم المواقف التي وقفتموها خلاله .

لقد وقفتم أولاً أمام قضية الأصل والدم ، وقلتم : « ان الاكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة الى الدم العربي ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء » .

أنا لا أود في هذا المقام أن أطرق مسألة أصل المصريين القدماء ، ولا أبحث عن علاقتهم أو عدم علاقتهم بالساميين عامة وبالعرب خاصة . سأسلم جدلاً بما تقولونه في هذا الباب ، مع هذا سأسألكم بدوري : هل علمتم بوجود أمة على الارض انحدرت من أصل واحد تماماً ؟ وهل تستطيعون أن تذكروا لي أمة واحدة ترتبط بروابط الدم فعلاً وحقيقة ؟

ان جميع الابحاث العلمية تدل على أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة خالصة الدم . حتى الأمة الفرنسية التي سبقت جميع الامم الأوروبية في طريق الوحدة والاستقرار ، لا تدعي بوحدة الأصل والدم وعلماؤها يعترفون بأن الاجناس التي دخلت في تركيبها تعد بالعشرات ، كما يعترفون مثلاً أن جنوب فرنسة يختلف عن شمالها من حيث الاصل والدم اختلافاً كبيراً . . . أيمكنكم أن تدعوا مع هذه الحالة بأن عدم وحدة الاصل والدم ، يجب أن تحول دون انضمام مصر الى حركة الوحدة العربية ؟

ثم وقفتم أمام مسألة التاريخ ، وادعيتم بأن « تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أي بلد آخر » .

فأسمحوا لي أن أقول بأن هذا الادعاء افتئات صارخ على الحقائق الواقعة : ان تاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقاً وتشابك تشابكاً كبيراً مع تاريخ سائر البلاد العربية خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة على الاقل ، فكيف يحق لكم أن تحذفوا هذه القرون من تاريخ مصر ؟ أنا لا أنكر أن تاريخ مصر لم يبق متصلاً بتاريخ الاقطار العربية على الدوام ، غير أنني أدعي بأن ذلك شأن تواريخ الامم الأخرى بدون استثناء ، فان تواريخ الأمم تشبه الأنهر الكبيرة التي تتكون من روافد متعددة بوجه عام .

إن كل من يلقي نظرة عامة على تواريخ الامم المعاصرة لنا كالأمة الفرنسية التي سبقت جميع الأمم في طريق الوحدة القومية ـ كما ذكرت آنفاً ـ يضطر الى التسليم بأن العلاقات التاريخية التي تربط مصر بسائر الاقطار العربية ، هي أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التي تربط الأيالات الفرنسية بعضها ببعض .

واذا أظهرتم شيئاً من الريب في هذا الباب ، فإنني مستعد لذكر التفاصيل والاسانيد التي تبرهن على صحة دعواي برهنة قطعية .

- ٣ -

والآن اسمحوا لي أن أنتقل معكم الى آخر المواقف التي وقفتموها خلال استعراض الصلات : لقد أنكرتم « تأثير اللغة » في تكوين « الوحدة العربية » ، وقلتم : « لا تنخدعوا ، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الامم ، لما كانت بلجيكا وسويسرا ولا أميركا ولا البرازيل ولا البرتغال . . . » .

فاسمحوا لي أن أناقشكم في هذا الموضوع المهم مناقشة طويلة :

لو كنتم أيها الاستاذ من الكتاب الذين كتبوا قبل الحرب العالمية ، فأقدمتم على كتابة بحث مثل هذا البحث للبرهنة على نظرية مثل هذه النظرية ، - قبل ربع قرن - لاستطعتم أن تضيفوا الى هذه الأمثلة مثالين آخرين ، ولقلتم عندئذٍ : لا تنخدعوا ، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الامم ، لما كانت الامبراطورية النمسوية ، ولا السلطنة العثمانية . . .

ولو كنتم ممن عاشوا قبل ذلك بنصف قرن أيضاً لاستطعتم أن تضيفوا الى أمثلتكم عشرات الأمثلة الأخرى ، ولأرخيتم العنان الى قلمكم الجوّاب لينتقل من جنوب ايطاليا الى شمال ألمانيا ، ولقلتم : « لو كان للغة وزن في تقرير مصير الامم لما كانت ساردينيا وساكسونيا ، ولا بيه ده مونته وباويرا . . . » .

غير أن تقلبات الزمان أزالت من عالم الوجود جميع تلك الامثلة والشواهد الكثيرة ، وحرمت النظرية التي تقولون بها من إمكان الاستناد اليها ، فحصرت الأمثلة في الاسماء التي ذكرتموها ، أفلا ترون أيها الاستاذ بأن هذه الملاحظة وحدها كافية للبرهنة على أن مثل هذه البراهين لا تخلو من مزالق كثيرة ، فلا يجوز الاعتماد عليها في حل القضايا الاجتماعية ؟

أفتلومونني اذا قلت أن هذه المحاكمة لا تخلو من الشبه بمحاكمة من يقول : « لو كان لجاذبية الأرض وزن في تقرير مواضع الاجسام ، لما بقيت القناديل معلقة بالسقوف ، ولما صعدت الأدخنة الى السماء ، ولما طارت الطيور وارتفعت المناطيد والطيارات »

اسمحوا لي أن أستعرض الظروف الخاصة التي تلازم كل واحد من الأمثلة التي ذكرتموها ، لكي أبرهن على صدق تشبيهي هذا :

إن أول الأمثلة التي ذكرتموها للتدليل على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الأمم هو وجود بلجيكا . وهل فاتكم أن بلجيكا ليست متجانسة من حيث اللغة ، بل هي من المناطق التي تتلاقى وتتشابك فيها اللغات ؟ ولا شك في انكم تعلمون أن النصف من سكانها يتكلم الفرنسية على حين أن النصف الآخر منها يتكلم الفلامندية . فاتحاد كل فريق

من هؤلاء مع سائر ابناء لغتهم يتوقف على تجزئة وانقسام بلجيكا ، على حين أن ذلك يصطدم بمشاكل عظيمة وموانع جسيمة من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والسياسية .

أولاً : ان حدود الألسن في بلجيكا لا تخلو من تشابك وتعقيد ، فعاصمتها بروكسل ـ مثلاً ـ تقع في منطقة فلامندية ، مع انها من أهم المراكز الفرنسية : يتكلم سكانها اللغة الفرنسية على حين أن سكان الكثير من القرى والقصبات المحيطة بها يتكلمون الفلامندية . ولا شك في أن هذا التشابك يجعل أمر تجزئة هذه المملكة من المشاكل العويصة من الوجهة المادية والجغرافية .

ثانياً : ان حدود المناطق اللغوية في بلجيكا لا تتفق مع حدود المناطق الاقتصادية ، مما يجعل أمر التقسيم عسيراً جداً من الوجهة الاقتصادية أيضاً .

ثالثاً : تشغل بلجيكا موقعاً هاماً بين ثلاث من أعظم الدول الأوروبية وهي المانيا وفرنسا وانكلترا . ولا حاجة للايضاح أن « تعارض منافع هذه الدول المعظمة الثلاث » جعل أمر ابقاء المملكة البلجيكية على حالتها وعلى حيادها من لوازم التوازن الدولي العام ومن مستلزمات السياسة العالمية الهامة . فكيف يجوز لكم أن تعتبروا وجود بلجيكا دليلاً على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الامم ؟ أفلم أكن محقاً عندما قلت : ان ذلك يشبه اعتبار توازن الاجسام دليلاً على عدم تأثير الجاذبية الأرضية ؟

هذا ومن وجهة أخرى ، أود أن أسألكم : هل من وجه لتشبيه قضية بلجيكا والأمم المجاورة لها بقضية مصر والبلاد العربية المتصلة بها ؟ وهل من مجال لاعتبار مصر والاقطار العربية المتصلة بها من مناطق تشابك اللغات وتعقدها ؟ وهل يتوقف اتحاد مصر مع سائر الاقطار العربية على تجزئتها وتجزئة غيرها ؟

ترون أيها الاستاذ ، ان مثال بلجيكا ، لا يؤيد دعواكم بوجه من الوجوه .

أما قيمة المثال الثاني الذي ذكرتموه فلا تختلف عن ذلك كثيراً : فان سويسرا أيضاً من مناطق تلاقي وتشابك اللغات ، تتلاقى فيها اللغات الفرنسية والالمانية والايطالية ، كما تتلاقى أهم سلاسل الجبال الأوروبية ، فلا يجوز اتخاذها دليلاً على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الامم بوجه من الوجوه .

وأما المثال الثالث الذي ذكرتموه ، فهو أيضاً لا يؤيد دعواكم في هذا الباب . أنا لا أرى لزوماً ـ في هذا المقام ـ الى شرح خصائص أمريكا ولا الى البحث عن قضية العناصر فيها بل سأكتفي بالاشارة الى عظمة المحيط الاطلنتيكي الذي يفصلها عن القارة الاوروبية . وأعتقد أن هذه الاشارة وحدها تكفي للبرهنة على أن قضيتها لا تشبه قضية البلاد العربية بوجه من الوجوه. فإن الاقطار العربية متصل بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً

تاماً ، والقطر المصري يشغل بين هذه الاقطار مركزاً هاماً ، وأما الحدود التي تفصله عن سائر الاقطار العربية ، فتنحصر في بعض الجهات بخطوط وهمية ، تمتد فوق رمال الصحراء ، فهل تعتقدون بأن هذه الخطوط الوهمية التي تفصل مصر عن سائر الاقطار العربية بصورة اعتبارية واصطناعية ، تستطيع أن تعمل عملاً مماثلاً لعمل البحر المحيط الذي يفصل أمريكا عن أوروبا بصورة حقيقية وطبيعية ؟

- ٤ -

بعد أن شرحتم ، أيها الاستاذ وجهة نظركم في الوحدة العربية ، رأيتم أن تقدموا نصيحة الى محدثيكم الشبان فقلتم :

« ان كان لي نصيحة أسديها اليكم يا اخواني ، فهي أن تتمسكوا بالواقع العلمي وتهملوا سواه ، مهما كانت قوته العاطفية والخيالية . افهموا أن المنفعة تسير الشعوب ، فإن لم تفهموا هذا اليوم ، فسترغمون على فهمه غداً » . أنا أضم صوتي الى صوتكم في هذه النصيحة ، من حيث الاساس ، غير أني أنكر عليكم النتائج التي وددتم أن تتوصلوا اليها تحت حماية هذه النصيحة .

تقولون أن المنفعة تسير الشعوب ، فهل تقصدون من ذلك أن « اتحاد الاقطار العربية » مخالف لمنفعة الشعوب ، أو خال منها ؟ وهل تدّعون أن منافع كل واحد من الاقطار العربية ستحول دون اتحادها ؟

أما أنا فأعتقد عكس ذلك تماماً : أعتقد أن فكرة الوحدة العربية لا تستند الى العاطفة وحدها ، بل تستند الى المنفعة أيضاً . أعتقد أن منفعة مصر نفسها تتطلب منها الاتحاد مع سائر البلاد العربية كما أعتقد بأن منفعة مصر في هذه القضية ليست من المنافع البسيطة الطفيفة ، بل هي من المنافع الهامة الحيوية . واذا كان الذين يقدرون أهمية هذه المنافع لا يزالون قليلين اليوم ، فلا شك في أنهم سيكثرون يوماً من الايام .

وعلى كل ، أنا من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون اليها ، ليس بتأثير العواطف فحسب ، بل بملاحظة المنافع أيضاً ، ولهذا السبب عندما قرأت قولكم « ان المنفعة تسيّر الشعوب » قلت في نفسي : « وهذه المنفعة هي التي ستسيّر المصريين نحو الوحدة العربية عاجلاً أم آجلاً » .

هذا ، وأرى الا أختم اعتراضاتي هذه دون أن أتوجه اليكم بكلمة شكر : فاني أشكركم من صميم فؤادي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ، لأنني أعتقد بأن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيء سائر انواع التوحيد . فأقول بلا تردد : « اضمنوا لي وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة . . . . »

حــول الوحــدة العربيــة[9]
الى الدكتور طه حسيــن

أيها الاستاذ :

لقـد مضى نحو ستـة أشهر عـلى نشر الانتقـادات التي وجهتهـا اليكم - في مجلة « الرسالة » - بمناسبة حديثكم المنشور في مجلة « المكشوف » البيروتية ، حول « الوحـدة العربية وموقف مصر منها » ، وعلى نشر « الفصل الجوابي » الذي ارسلتموه الى « الرسالة » رداً على تلك الانتقادات[10] .

لم أكتب اليكم شيئاً حول هذه القضية خلال هذه المدة لاسباب ستظهر لكم من الاسطر التالية ، ومع هذا أشعر الآن بدافع قوي يدفعني الى مخاطبتكم في هذه المسألة ، بالرغم من مرور هذه الاشهر الطويلة ، لمواصلة البحث والمناقشة فيها .

*

كنت غادرت بغداد الى المغرب الاقصى قبل وصول عدد « الرسالة » الذي نشر فيه ردكم ، فلم أطلع عليه الا في بيروت قبيل سفري منها بالطيارة . قرأت الرد هناك فوقعت في حيرة عميقة لأنني انتهيت من قراءته دون أن أجد فيه كلمة واحدة يصح أن تعتبر رداً على ملاحظاتي الاعتراضية ، أو جواباً على اسئلتي الانتقادية ، لأن الآراء المسرودة في الفصل كانت تحوم حول قضية « وحدة الثقافة » و « واجب مصر في أمر هذه الوحدة » حين أن هذه

(٩) نشرت في مجلة: الرسالة، (١٩٣٩).

(١٠) الرسالة، العددان ٢٨٥ و٢٨٦ (١٩ و٢٦ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٨).

القضية لم تكن في القضايا التي اختلفت معكم فيها ، بل كانت في القضايا التي شكرتكم عليها !

فانني ختمت مقالتي الانتقادية بالعبارات التالية :

« هذا وأرى ألا اختم اعتراضاتي ، دون أن أتوجه اليكم بكلمة شكر ، فإنني أشكركم من صميم فؤادي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ، لأنني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيء سائر انواع التوحيد . فأقول بلا تردد : اضمنوا لي وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة » .

فكان من الطبيعي أن أقع في دهشة عميقة من قراءة الفصل الذي نشرتموه في الرسالة تحت عنوان « الرد » .

وأخذت أفكر ـ وأنا أقطع الفضاء فوق اجواء البحر الابيض المتوسط ـ في تعليل الخطة التي انتهجتموها في هذا الباب : « كيف سوَّغ الدكتور طه حسين لنفسه أن يسمي هذا الفصل رداً ؟ » .

قلت في بادىء الأمر : يظهر أن الاستاذ قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه . فلم يجد مجالاً للرد على الانتقادات التي وجهت اليه ، ولم يرد مع هذا ان يعترف بذلك ، فأراد أن يتظاهر بالرد بنشر فصل لا علاقة له بموضوع الانتقاد والاعتراض .

غير أنني لم أرتح لهذا التفسير والتعليل ، لأنني استبعدت منكم أن تسلكوا مثل هذا المسلك في مناقشة قضية هامة مثل قضية الوحدة العربية . فواصلت التفكير في الأمر الى أن خطر على بالي تعليل آخر أقرب الى العقل من التعليل الأول . يقول الدكتور طه حسين : « إن الرد هو فصل من كتاب تحت الطبع » ، أفليس من الممكن أن يكون قد حدث سهو في نقل الفصل من الكتاب ؟ قد يكون في الكتاب فصل يتضمن الرد غير أن الدكتور قد سها في رقم الفصل ، فالمطبعة ارسلت الى « الرسالة » فصلاً آخر غير المقصود .

عندما لمحت هذا الاحتمال، ركنت اليه كل الركون، وقلت في نفسي: قد ينشر الدكتور في العدد التالي من الرسالة تصحيحاً لما حدث، غير أن اسفاري السريعة سوف لا تترك لي مجالاً للاطلاع على ذلك قبل عودتي الى بغداد. فلا بد لي من الانتظار الى ذلك الحين للوقوف على التصحيح او لقراءة الكتاب.

ولهذا السبب ، عندما عدت الى بغداد بعد اتمام رحلتي في المغرب الاقصى ، والجزائر وتونس وصقلية ـ اسرعت الى تصفح اعداد الرسالة التي صدرت في غيابي ، ولما لم أجد فيها شيئاً يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده ، طلبت نسخة من كتاب (مستقبل

الثقافة في مصر) ، وأخذت أقرأ بانتباه شديد باحثاً فيه عن (الرد) . . . غير أنني وقعت في دهشة أشد من دهشتي الأولى عندما انتهيت من قراءة فصول الكتاب بأجمعها ، دون أن أصادف فيها أيضاً ما يصح أن يعتبر جواباً على واحد من أسئلتي الانتقـادية . فقلت في نفسي : لم يبق مجال لتعليل الأمر بغير الملاحظة التي كانت وردت على ذهني عقب مطالعة الرد المنشور في مجلة الرسالة .

مع هذا لم أشأ أن أكتب شيئاً حول هذا الموضوع ، للملاحظتين التاليتين : أولاً ، كان قد مضى على نشر ردكم مدة تناهز ثلاثة أشهر . ثانياً ، « إن تباعد الرد عن موضوع البحث والمناقشة » كان من الأمور الجدلية التي لا تحتاج الى التوضيح والتنبيه ، كما ظهر لي ذلك من أقوال الشبان الذين حادثتهم خلال رحلتي في باريس ، وتونس ، وسورية .

فقلت في نفسي : لا داعي لكتابة شيء في هذا الموضوع بعد انقضاء هذه المدة ، ما دام رد الدكتور طه حسين لم يكن من النوع الذي يستـطيع أن يخـدع أحداً من القـرّاء الاذكياء . ولذلك لم أعد الى البحث منذ ذلك الحين.

*

غير أنني اطلعت أخيراً على مقالكم المنشور في العدد الممتاز من مجلة الهلال ، عن « العقل العربي الحديث » ، ورأيت انكم تعرضتم في ذلك المقال لمسألة « الوحدة العربية » بطرق ملتوية : بعد أن سردتم بعض الآراء حول « تطور العقل البشري » بوجه عام ، وتطور « العقل الأدبي الحديث » بوجه خاص ، بحثتم عن وجوب « تجديد العقل العربي » وذكرتم ما تعتقدونه في وسائل هذا التجديد . ثم انتقلتم الى مسألة « الوحدة العربية » بطريقة « ظريفة » اذ قلتم ما يلي :

« وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم ، والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نعيش فيه ، مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة ، فما أظن أن الناس يختلفون في أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الاسلامية أشد النفع ، وفي أن مصالحهم تدعوهم اليها وتدفعهم اليها دفعاً ، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا لشيء الا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث ، فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه ، وليسمّ هذا السلطان خلافة وليسمّ ملكاً كما كان يسمى قديماً ، ويجوز أن يسمى إمبراطورية ليكون له حظ من الطرافة ، فقد عرف القدماء الامبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوروبيين . وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن أنه أصبح حديثاً . وأما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الاوروبية ، يفهمونها على

أنها لا تنفع ولا تفيد الا اذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية ، والحريات الكاملة لأعضائها ، والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية ، وقامت على الحلف الذي لا يفني أمة في أمة ولا يخضع شعباً لشعب ، وانما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الانداد من المساواة . فاذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم أشد الضيق ، لأن عقله لم يتطور بعد ، ولم يستطع أن يكون من أهل العصر الذي يعيش فيه ، وإنما هو محتفظ بكل مشخصات القرون الوسطى ، وهيهات لمشخصات القرون الوسطى أن تسيغ ما يقع في القرن العشرين . . . » .

يظهر لي من كلماتكم هذه انكم بعد أن تهربتم من مناقشة مسألة الوحدة العربية مناقشة مباشرة ـ حين دعيتم اليها ـ أردتم أن تعودوا اليها عن طريق التعريض والتلويح ، كما أردتم أن تستهووا أذهان قرائكم عن طريق اتهام معارضيكم بالتمسك بـ « مشخصات القرون الوسطى » ، وإلباس رأيكم حلة قشيبة من « مقتضيات العقل العربي الحديث » .

فاسمحوا لي اذن ان أتبعكم في هذه الطرق الملتوية ، وأن أزن ملاحظاتكم بميزان « العقل العربي الحديث » الذي تشيرون اليه .

لا أدري اذا كان الانصراف عن مناقشة المسائل مناقشة مباشرة ، والالتجاء الى طرق « التعريض والتشويش » في أمرها مما يفيد ـ في عرفكم ـ في مقتضيات العقل الحديث . غير أنني اعتقد انكم تسلمون معي ـ على كل حال ـ بأن العقل العربي الحديث يجب أن يكون على غرار « العقل الأوروبي الحديث » ولا تنكرون ـ بالطبع ـ أن « العقل الأوروبي الحديث » يتطلب السير على مناحي الأبحاث العلمية ، على أساس استنطاق الوقائع والحادثات واستقرائها متجرداً عن تأثيرات الميول النفسانية والآراء القبلانية . . .

فلننعم النظر في الملاحظات التي نقلتها آنفاً من مقالتكم ، لنرى مبلغ ملاءمتها لمقتضيات « العقل العربي الحديث » الذي تدعون اليه :

أولاً : انكم تبحثون في كلامكم هذا عن الوحدة العربية والوحدة الاسلامية كأنهما مسألة واحدة ، على حين أن احداهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كلياً . فإن فكرة « الوحدة العربية » ترمي الى توحيد الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة على حين أن فكرة « الوحدة الاسلامية » ترمي الى توحيد الامم التي تتكلم بلغات مختلفة ، بالرغم من تدينها بدين واحد ، فالبوْن بينهما شاسع جداً ، فإن الدعوة الى « الوحدة العربية » لا تتضمن الدعوة الى الوحدة الاسلامية الشاملة ، كما أن عدم الايمان بامكان تحقيق « الوحدة الاسلامية » لا يستلزم انكار امكان تحقيق « الوحدة العربية » . ولذلك أقول بلا تردد أن خلط هاتين المسألتين والنظر اليهما بنظرة واحدة ، يخالف أبسط حقائق علم الاجتماع ، وأبرز وقائع تاريخ السياسة ، ولا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه .

ومن الغريب انكم لا تكتفون بالخلط بين هاتين المسألتين ، بل تحشرون بينهما مسألة الخلافة أيضاً بصورة غريبة ، وتنظرون الى هذه المسائل كلها بنظرة واحدة . لقد تعودنا أن نرى آثار مثل هذا الخلط ، في كتابات بعض الساسة من الأوروبيين المستعمرين ، لأنهم ينظرون ـ عادة ـ الى هذه المسائل كلها من وجهة نظر اطماعهم الاستعمارية ، ويسعون الى وصم جميع الحركات القومية والوطنية بوصمة « التعصب الديني » ليثيروا الرأي العام الأوروبي عليها . . . غير أننا ما كنا ننتظر منكم أن تقتفوا أثر هؤلاء الساسة من حيث لا تشعرون ، وأن تخلطوا بين هذه المسائل بهذا الشكل الغريب .

فأرى من واجبي أن أصرح لكم في هذا المقام ، بأنني مع عدد كبير من المفكرين القوميين الذين أعرفهم واتصل بهم على الدوام انظر الى قضية « الوحدة العربية » كقضية مستقلة عن قضايا « الوحدة الاسلامية » و « الخلافة الاسلامية » كل الاستقلال ، وأؤكد لكم أنني ـ بقدر ما أؤمن بفكرة العروبة ، وبقدر ما أعتقد بامكان الوحدة العربية ، وبقدر ما أقول بوجوب السعي وراء تحقيقها ـ أعتقد باستحالة « الوحدة الاسلامية » ، وأقول إن « إثارة فكرة الخلافة » مضرٌ بـ « قضية الوحدة العربية » و « فكرة التضامن الاسلامي » في وقتٍ واحد .

*

هذا ومن جهة أخرى ألاحظ انكم تسلمون ـ في مقالكم هذا ـ بأن « الوحدة » نافعة « للشعوب العربية والاسلامية » أشد النفع . وتقولون بأن الناس لا يختلفون في منافع هذه الوحدة ، انما يختلفون في « تصورها حسب ما يتاح لهم من العقل القديم والعقل الحديث » . . . كما تصفون لنا نوعي هذا التصوير وصفاً بارعاً : النوع الذي يقول به صاحب العقل القديم ، وهو الذي يتصور الوحدة تحت ظل سلطان شامل ، والنوع الذي يقول به صاحب العقل الحديث ، وهو الذي يتصور الوحدة على أساس ما يكون بين الانداد من المساواة . . .

أنا لا أود أن أبحث عن مبلغ مطابقة وصفكم هذا للحقائق الراهنة ، غير أني أرى من الضروري ان أقول لكم في هذا المقام إنني قد اطلعت ـ قبل مدة ـ على رأي في الوحدة العربية يختلف عن هذين الرأيين في وقت واحد : فإن صاحب ذلك الرأي ، كان لا يقبل الوحدة ، ولو كانت على أساس المساواة ، ولا يرضى بالوحدة ، ولو كانت على نمط اتحاد يشابه الاتحاد الامريكي أو السويسري . . . فهل تسمحون لي أن أسألكم : أتعتبرون موقع هذا الرأي في العقل القديم أم العقل الحديث ؟

لا أشك في انكم لن تطلبوا مني أن أذكر لكم اسم صاحب هذا الرأي ، غير أنني

أظنكم سوف تعذروني اذا ذكرت ذلك تنويراً للقرّاء :

ان صاحب هذا الرأي ـ الذي يخالف مقال صاحب العقل القديم ومقال صاحب العقل الحديث في وقت واحد ـ هو صاحب « الحديث » المنشور في مجلة « المكشوف » ! . . . ذلك الحديث الذي كان مبدأ ومنشأ لجميع هذه المناقشات !

فقد قرأت في ذلك الحديث ، العبارة التالية ، بحروفها :

« مصر لن تدخل في وحدة عربية ، حتى ولا اتحاد عربي ، سواء أكانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى أو مسيطرة عليها . . . »[11].

كما قرأت في مكان آخر من ذلك الحديث العبارة التالية ، بنصها :

« الوحدة العربية ، كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل امبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الامريكي أو السويسري »[12].

ترون من كل ذلك أيها الاستاذ أن مسألة الوحدة العربية ليست من القضايا التي يمكن أن تناقش وتعالج بالصناعة الكلامية والاندفاعات الارتجالية . . . كما ترون أن الخطة التي سلكتموها في معالجة هذه القضية تجركم دائماً الى مواقف تخالفون فيها الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما جرتكم في بعض الاحيان الى مواقف تناقضون فيها أحاديثكم الذاتية أيضاً . . .

انكم تدعون المفكرين الى بذل الجهود في سبيل « تجديد العقل العربي ». . . وكم كنت أود أن أراكم تعملون بهذه الدعوة في المناقشات التي تخوضون فيها ، ولا سيما اذا كان موضوع المناقشة من الموضوعات الهامة مثل « فكرة العروبة » و « الوحدة العربية » . . .

---

(١١) « الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة ، » **المكشوف** ، العدد ١٧٥ .

(١٢) المصدر نفسه .

دور مصـــــر
في النهضة القوميـة العربيـة(١٣)

لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بـواجب الزعامة والقيادة في انهاض القومية العربية .

لأنها تقع في مركز البلاد العربية ، بين القسمين الافريقي والآسيوي منها ، كما أنها تكوّن أكبر كتلة من الكتل التي انقسم اليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف . وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة ، وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة في البلاد العربية ، وهي أغنى هذه البلاد بأجمعها ، كما أنها أقدمها في تشكيلات الدولة العصرية وأقواها في الآداب وأرقاها في الفصاحة . . .

وكـل ذلك ، من المـوقع الجغـرافي الى الكثرة والثـروة العامـة ومستـوى الثقـافـة وتشكيلات الدولة وانتشار الأدب والفصاحة ، مما يجعل مصر « الزعيمة الطبيعية » للقومية العربية . ولهذا السبب نجد أن جميع الذين حملوا الايمان القومي في نفوسهم ، وعملوا في سبيل انماء روح القومية في جميع البلاد العربية ، وجهوا وجوههم شطر مصر ، وانتظروا منها الحركات والأعمال التي تضمن النصر في هذا السبيل . . .

غير أنهم منوا بالخيبة في آمالهم وأمانيهم هذه في بادىء الأمر لأنهم شاهدوا أن مصر ظلت معرضة عن الفكرة العربية ، محايدة نحوها . وهذه الحالة أدت الى قنوط البعض من انضمام مصر الى الفكرة العربية .

غير أن البعض الآخر لم يصبحوا من القانطين . بل ظلوا مؤمنين بأن مصر ستترك

---

(١٣) نشرت في جريدة: **البلاد**، (بغداد)، (١٩ نيسان / ابريل ١٩٣٦).

هذا الوضع ـ عاجلاً أم آجلاً ـ وستشترك في الحركة العربية ، وتزيدها قوة ونشاطاً .

إن آثار التطور الذي حدث في مصر في السنين الأخيرة أيّد نظرية هؤلاء وقوى ايمانهم في هذا الباب .

لقد كان لاعراض مصر عن الفكرة العربية أسباب ودواع طبيعية ، غير أن هذه الاسباب كان محكوماً عليها بالزوال بطبيعة الحال .

إن المعنى الذي أحاط بكلمة « عرب » بين الناس ، لا سيما في مصر ، كان من أول العوامل التي أدت الى تباعدهم عن الفكرة العربية ، لأن الناس صاروا يستعملون هذه الكلمة للدلالة على البدوي غير المتحضر ، فأخذوا يعتبرونها مقترنة بالتأخر والهمجية ، وذلك استوجب تنصل المتحضرين من العروبة وابتعادهم عنها . غير أن انتشار الثقافة وتعميم دراسة التاريخ كان كفيلاً بازالة هذه الفكرة الخاطئة، وارجاع كلمة « العرب » و « العروبة » الى معانيها الحقيقية القومية .

وكذلك كان تعظيم مصر لمقام الخلافة وارتباطها بها ، وزعمها بأنها ستنال الخلاص والاستقلال على يدها . . . من جملة الاسباب التي حملتها على الاعراض عن الحركة العربية في بدء ظهورها . غير أن سير الوقائع الطبيعي في هذه القضية أيضاً جاء كفيلاً بازالة هذا العامل المهم من طريق النهضة القومية العربية : فإن استنكار الخلافة من قبل أصحابها ، وطرد الخليفة من قبل بني جنسه أنفسهم ، والغاء الخلافة من قبلهم أيضاً بعد مدة وجيزة ، لم يترك سبباً مبرراً للحنق على الثورة العربية لقيامها على مقام الخلافة . وكل ذلك اضطر المصريين الى العودة الى أنفسهم ، والبحث عن روابط أقوى من التي كانوا اعتمدوا اليها .

إن هذه العودة ـ وهذا البحث ـ انضما الى حركة التعارف الجديدة ، وأفسحا مجالاً لتولد الشعور العربي ، وانتشاره بين المصريين .

لا نكران في أن بعض مفكري مصر لم يصلوا بعد الى مرحلة رابطة « القومية العربية » بل توقفوا عند نوع من الرابطة تؤلف جسر انتقال من مرحلة « الرابطة الاسلامية العامة » الى مرحلة « الرابطة العربية القومية » .

هذه الرابطة سموها باسم « الرابطة الشرقية » ـ غير اننا لا نشك في أن فكرة هذه الرابطة ـ عندما تتجرد من عناصرها اللفظية ، وتصطدم بالحقائق العملية وتنصهر بالتعارف الحقيقي ـ ستتحول بالتدريج الى رابطة عربية بحتة .

إنني كنت من المؤمنين بكل ذلك من زمن طويل ، ولم أقنط من انتشار فكرة القومية في مصر في يومٍ من الايام . غير أنه يسرني جداً أن أرى هذه السنة في مصر ، اختماراً

اجتماعياً عميقاً ، يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ، ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعي ، ورسالتها القومية شعوراً واضحاً . . . ولا أشك في أن هذه ليست الا مقدمة مباركة ، سيعقبها شعور فياض نحو القومية العربية ، وعمل جبار في سبيل انهاض هذه القومية . . .

العلم للعلم ، أم العلم للوطن ؟

بوسيلة دراسة التاريخ

- ١ -

إنني لا أعترض على من يدعي أن « العلم للعلم » ، وأسلم بأن « الابحاث العلمية » يجب أن يكون هدفها « معرفة الحقيقة » معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية . . .

غير أنني أقول ـ في الوقت نفسه ـ بأن العلم شيء والتعليم شيء آخر ، فما يصح في « العلم » قد لا يصح في « التعليم » .

فعندما نقول « العلم للعلم » لا يتحتم علينا ـ منطقياً ـ أن نقول في الوقت نفسه « التعليم للتعليم » ، وعندما نسلم بأن « العلم لذاته ، لا لشيء غيره » لا يترتب علينا أن نسلم في الوقت نفسه بأن « التعليم أيضاً لذاته ، لا لشيء غيره » . . .

فان مبدأ « العلم للعلم » لا يمنعنا من القول بأن (التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات ، بل هو من الوسائل التي تستخدم للوصول الى بعض الغايات) .

إن هذه الغايات لا تكون «مادية ونفعية » في كل الاحيان ، بل تكون « معنوية وتربوية » في معظم الاحوال . فقد يقصد من التعليم اعطاء بعض المعلومات اللازمة للحياة في بعض الاحوال ، غير أنه يقصد منه ـ في معظم الاحوال ـ « الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربوية » كالتعويد على البحث والملاحظة والترغيب في الدرس والمطالعة أو تنمية الميول الفنية ، واستثارة العواطف النفسية . وأما التعليم الذي يتجرد عن مثل هذه الاهداف والغايات ، فيكون مخالفاً لأسس التربية الصحيحة مخالفة كلية .

ويمكننا أن نقول : ان قيمة التعليم تقاس بقيمة الغايات التي يرمي اليها من جهة ،

وبجودة الطرق التي تتبع في خلاله من جهة أخرى . ولا نغالي اذا قلنا : ان « دور الغايات » في هذا الشأن يكون أهم من « دور الطرق » بوجه عام ، لأن « الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها » بطبيعة الحال .

هذا ومما تجب ملاحظته في هذا الباب ، ان تعليم أي علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة في ذلك العلم . . . حتى في الدراسات العالية . . . فكل تعليم يضطر ـ بطبيعة الحال ـ الى انتخاب بعض الحقائق ، والاهتمام بها أكثر من غيرها ، فنستطيع أن نقول لذلك بوجه عام : ان التعليم يتضمن شيئاً من الانتخاب ، فجودة التعليم تتوقف على حسن الانتخاب . ولا جدال في أن حسن الانتخاب لا يتيسر الا بموازنة الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الابحاث ، من جميع الوجوه العلمية والتربوية . ولا شك في أن هذه « الموازنة » توسع مجال عمل « الغايات في التعليم » توسيعاً كبيراً .

وأما نوع التربية الذي ينتخب ، والتأثير الذي يتوخى من تعليم كل علم من العلوم ، فيختلف باختلاف العلوم من جهة ، وباختلاف درجات التعليم من جهة أخرى . فالفوائد العلمية والأهداف التربوية التي تقصد في تعليم الرياضيات مثلاً ، تختلف عما يُتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات . كما أن الغايات التي تستهدف تعليم هذه العلوم تختلف في المدارس الثانوية عنها في العالية . ونستطيع ان نقول بوجه عام : ان دور الغايات التربوية في التعليم يتقلص ويتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم . مع هذا فان التعليم العالي نفسه لا يتجرد عن الغايات التربوية تماماً ؛ فان هذا التعليم أيضاً لا يكتفي بسرد الحقائق وحدها ، بل يستهدف في الوقت نفسه تعويد الطلاب على « التعلم من تلقاء أنفسهم » ، بمراجعة المصادر وجمع الوثائق ، وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث . . . حسب ما تقتضيه طرائق البحث العلمي والدرس الذاتي .

وأما التعليم العالي الذي لم يقم بهذه المهمة خير قيام ، فيكون مقصراً في واجباته الاساسية ، مهما توسع في سرد الحقائق وتوغل في شرح الأبحاث . . .

فلا نغالي اذا قلنا : ان التعليم لا يصبح مقصوداً بالذات ، الا في الدراسات العالية الاختصاصية وحدها .

ـ ٢ ـ

إن ما قررناه آنفاً في شأن « العلم والتعليم » بوجه عام ، ينطبق على أمر « التاريخ » بطبيعة الحال .

ففي ساحة التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول : ان الابحاث العلمية التي تستهدف نشر

تلك الحقائق شيء . . والشؤون التعليمية التي تستهدف نشر تلك الحقائق شيء آخر . ومهما بالغنا في القول بأن التاريخ يجب أن يستهدف معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية ، لا نستطيع أن نقول ذلك في « تعليم التاريخ » بوجه من الوجوه . بل لا بد لنا من القول بأن هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربوية واضحة . . . على كل حال .

ويجب أن نلاحظ ـ زيادة على ذلك ـ أن الغايات التربوية التي يمكن أن تعمل عملها في ساحة « تعليم التاريخ » كبيرة وخطيرة جداً ، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات البشرية بالتأثيرات العميقة التي تحدثها في الشعور القومي والوطني وبالأدوار الهامة التي تقوم بها في تكوين القومية والوطنية .

فإن شعور الافراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلاً ، غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديداً من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التي تعاقبت على الوطن والأمة في سالف الأزمان .

ويمكننا أن نقول : ان الشعور القومي يستند على الذكريات التاريخية أكثر من كل شيء آخر . ونستطيع أن نؤكد بأن الافكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ تلعب دوراً هاماً في حياة الأمم وتؤثر تأثيراً كبيراً على سير الحادثات في التاريخ .

ولهذا السبب نجد أن الأمم المتمدنة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيماً ، فهي لا تكتفي بتذكير الماضي بواسطة الدروس والمؤلفات ، بل تبذل أنواع الجهود لاقامة التماثيل والانصاب بقصد « تجسيد وتخليد الذكريات » ، كما تنتهز جميع الفرص لاقامة الاحتفالات « لاحياء ذكرى » بعض الوقائع التاريخية ، بقصد استثارة انتباه الشعب ، وايقاد نار الذكريات القومية في قلوب الناس .

كما نشاهد أن الدول المستعمرة عندما تستولي على أمة من الأمم تحاول أن تدعم استيلاءها العسكري باستيلائها المعنوي ، وتعتبر السيطرة على « المعلومات التاريخية » من أهم وسائل هذا الاستيلاء . ولذلك حالما تنتهي من الاعمال التي تستهدف محو الحكومة المحلية وقواها المختلفة ، تأخذ في تصويب سهامها نحو التاريخ القومي ، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لاخفات صوت ذلك التاريخ ، وتستعمل كل ما تملك من الحيل لابعاد ذاكرة الامة عن تاريخها الخاص.

كما نجد أن الشعور القومي عند الامم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤل عندما « يبسط النسيان » أجنحته على « التاريخ القومي » . ولا سيما عندما تنصرف الامة عن تاريخها الخاص الى « التاريخ » الذي تلفقه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة ، حسبما تقتضيه سياسة السيطرة والاستعمار . . .

وأما عودة الشعور القومي الى مثل هذه الامم المحكومة ، فلا تتم الا بعودة الذكريات التاريخية . ولا نغالي اذا قلنا : أن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد لا تبدأ الا بتذكير الماضي واستلهام التاريخ ، بوجه عام . هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام .

فإن « حب الاستقلال » يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان الى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، والايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة . . . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ ، من تاريخ استقلال اليونان الى تاريخ اتحاد الالمان ، ومن تاريخ ثورة الصرب الى تاريخ وثبة الاتراك .

ولذلك كله نجد أن جميع علماء التربية يتفقون في القول بأن درس التاريخ من أهم وسائط التربية الوطنية والقومية .

فهل يجوز والحالة هذه للمعلمين والمؤلفين أن يتعاموا عن ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية في هذا المضمار ، وأن لا يستفيدوا من تأثيرها هذا في تقوية الروح القومي وتوجيه الشعور الوطني ، نحو الأهداف التي يتطلبها مجد الامة ونهوضها ؟

- ٣ -

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه التربية إنما هو من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التي تُحكم بالدكتاتوريات الوطنية . وحقيقة الأمر انه لا فرق بين هذه الامم وغيرها بهذا الاعتبار . ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الامم الراقية تجردت عن هذه النزعة ، فأهملت الاستفادة من دروس التاريخ في هذا المضمار .

واذا تجلت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الامم بوضوح أكبر ، فما ذلك الا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً ، فاضطروا لذلك الى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة فجائية وعلى رؤوس الاشهاد . في حين أن غيرهم كانوا أقدموا على مثل هذا العمل قبلاً ، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيّفاً بمقتضيات الوطنية ، منذ مدة غير يسيرة من الزمن . فيمكننا أن نقول : ان الفرق بين الفريق الأول والفريق الثاني ينحصر في تاريخ عملهم بهذه النزعة ، لا في انقيادهم اليها أو انصرافهم عنها .

فيجب علينا أن نعلم علم اليقين ، أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية ، من الخطط التي تعمل بها جميع الامم من غير استثناء ، ومن الخطط التي تتحتم على جميع الامم الناهضة بوجه خاص . . .

هذا ويجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن « التكييف » الـذي نشير اليـه لا يلتزم « الاختلاق » ، لأن « الانتخاب والتبريز » وحدهما يكفلان التكييف ، ويكفيان للتوجيه بوجه عام .

وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحديدها ، بل شبكـة معقدة لا حد لتعقيدها . فعدم ذكر الوقائع بأجمعها ـ تارة بصورة إرادية وطـوراً بصورة اضـطرارية ـ وانتخـاب البعض وتـرك البعض منهـا ، حتى تفصيـل البعض واختصـار البعض ، مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسي تغييراً كبيراً ، كما تتغـير الالوان حسب مشيئة المصورين تبعاً لتغير انواع الاصباغ التي تمزج بعضها ببعض من جهة ، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نقول : ان عملية الانتخاب والتبريز ، اذا كانت من الأمـور المهمة في جميع فروع التعليم ، فهي في منتهى الأهمية في تعليم التاريخ .

لنذكر مثالاً بسيطاً لتوضيح تأثير الانتخاب والتبريز : لنفرض اننا نود أن نبحث عن علاقة فرنسا بوحدة ايطاليا . فاذا استعرضنا الحوادث التي تعاقبت في ايطاليا منذ حروب نابليون الى حرب السبعين ، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها ، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة ايطاليا في بعض الاحوال والأدوار ، ومعرقلة لها في احوال وأدوار اخرى. فإذا ذكرنا النوع الاول من الوقائع دون ان نبحث عن النوع الثاني منها واذا سردنا النوع الثاني من الوقائع دون ان نتطرق الى النوع الاول منها، فسنوصل قراءنا وطلابنا الى أحكام متخالفة متعاكسة في هذا الباب. وهذا الاختلاف سيظهر حتى عندما لا نهمل ذكر نوع من نوعي هذه الوقائع إهمالاً تاماً بل نتوسع في شرح أحد النوعين ونكتفي باشارة مختصرة الى النوع الآخر.

وهذا ما يحدث فعلاً في تدوين وتدريس هذه الوقائع التاريخية في مدارس كل دولة من هاتين الدولتين : فان الفرنسيين يوجهون الانظار الى الوقائع التي كانت من نوع « المساعدة للوحدة الايطالية » ويبرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها . في حين أن الايطاليين ـ بعكس ذلك ـ يوجهون الانظار الى الوقائع التي كانت من النوع الثاني ، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها . ولهذا السبب نجد أن رأي الايطاليين في هذه القضية يختلف عن رأي الفرنسيين اختلافاً بيناً في معظم الاحوال .

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة التأثير الشديد الذي يتأتى من دروس التاريخ في ادامة الضغائن واثارة الحروب بين الامم ، فأخذوا يفكرون فيما يجب عمله في هذا الباب . وهذا ما حمل عصبة الامم على الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً ، وتكوين فرع مختص بشؤون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكري الأممي . كما حمل عددا

كبيراً من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية للمداولة في القضايا المتعلقة بدروس التاريخ .

واذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشراتها ، ولاحظنا اعمالها ومقرراتها ، وجدنا انها لم تعارض قط في « استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية » ؛ وكل ما طلبته من المعلمين والمؤلفين في هذا الباب ، انحصر في التماس السعي الى تخليص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الابحاث والاتجاهات التي تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الامم .

إنها دعت المعلمين والمؤلفين الى توجيه جهودهم وأعمالهم الى هذا الاتجاه على الدوام ، من غير أن تطلب اليهم أن يجردوا دروسهم وكتبهم من النزعات القومية والوطنية ، أو يتركوا الاستفادة من التاريخ في التربية القومية والوطنية .

وعلى كل حال ، فنحن نستطيع أن نؤكد بأن « تعليم التاريخ » يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شيء ، عند جميع الامم ، بدون استثناء .

- ٤ -

بعد هذه التفصيلات ، يجدر بنا أن نعود الى انفسنا ونتساءل عمّا يترتب علينا عمله في دروس التاريخ ، نحن الناطقين بالضاد .

نحن نعتقد بأن حاجتنا الى الاستفادة من التاريخ في التربية الوطنية والقومية تفوق حاجة جميع الامم على الاطلاق . لأن العالم العربي الآن يزيد في احتياجه الى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ في هذا المضمار زيادة هائلة .

هذا ويجب أن لا ننسى من جهة أخرى أن أمر تأليف وتدريس التاريخ ـ في العالم العربي ـ ظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمي والتربية الوطنية في وقت واحد .

وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند على نوعين من المصادر : غربية وشرقية . والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير « النظرات الأوروبية » التي نشأت على معاداة الشرق العربي واستضعاف العرب حتى الآن . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربوية في وقت واحد .

فيترتب علينا ، في مرحلة النهضة التي وصلنا اليها ، أن نعيد النظر في أبحاث التاريخ ، بروح علمي وشعور قومي ، وأن نوجد لأنفسنا بهذه الصورة مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمي وبين مطالب التربية الوطنية في وقت واحد .

العـــلم والوطنيـــة

الى الاستاذ توفيق الحكيم

قرأت الكلمة الرشيقة التي دبجها يراعكم الفنان في صدد الرد على استفتـاء مجلة « الرابطة العربية » حول مسألة « العلم للعلم ، أم العلم للوطنية ؟ » .

قرأتها بامعان واهتمام ، وأعجبت بثروة الاخيلة والتشبيهات التي زينتموها بها ، غير انني لم أقتنع بصحة الافكار والآراء التي سردتموها فيها .

لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم : « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا . . . » .

إذاً فأنتم تعتقدون بأن العلم والوطنيـة مختلفان ، وزيـادة على ذلـك تدعـون بأن اختلافهما هذا سيستمر الى الابد ، وسوف لا يزول في يوم من الايام .

إن صحت هذه النظرية ، فإن كل من يحب العلم ويعشق الوطن في وقت واحد ، يكون بمثابة الوثني الولهان الذي يعبد الأوثان المتنافرة على حد سواء .

أعترف لكم ايها الاستاذ، بأنني من الذين يدينون بدين العلم ودين الوطنية في وقت واحد، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب «نشر البحث العلمي» من جهة، و تقوية الشعور الوطني» من جهة اخرى.

أفلا تعذرونني ـ والحالة هذه ـ اذا ما اعتبرت نظريتكم من الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتقي مناقشتكم فيها مناقشة شاملة ، لاظهار الحقيقة في أمرها الى العيان ؟

*

تـدَّعون أيهـا الاستاذ ، في كلمتكم بـأن « العلم والوطنيـة لا يمكن أن يتفقا » ،

وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا :

ان الوطنية هي الانانية في المجموع ، والانانية عمياء ، والعلم هـو البصر المنـزّه بحقيقة الاشياء .

انني لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا ، بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأبحث فيما اذا كانت تكفي للدلالة على صحة ما تدعونه في هذا الباب :

تقولون « ان الوطنية هي الانانية في المجموع » ، فهل تستطيعون أن تقولوا في الوقت نفسه : بأن العلم ينكر الانانية على الاطلاق ، ويتعامى عن تـأثيرهـا في حياة الحيـوان والانسان ؟

وتقولون « إن الانانية عمياء » ، فهل تستطيعون أن تقولوا في الـوقت نفسه أن العلم يخالف كل ما هو أعمى ؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟

ثم تقولون « ان العلم هو البصر المنزّه بحقيقة الاشياء » ، فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية « خارجة عن حقائق الاشياء » ؟

كلا ؛ فان الوطنية قوة اجتماعية حقيقية فعّالة ، ليس الى انكارها من سبيل . . . آثارها تظهر للعيان على الدوام ، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجلاء . فهي تدخل لذلك في نطاق « حقائق الاشياء » ، كما تدخل فيـه سائـر القوى والمؤثرات الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية .

فاذا أردنا أن نجعل « الوطنية » موضوع بحث علمي ، يجب علينا أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بـوجه عـام ، والحادثـات والقوى الاجتمـاعية بـوجه خاص .

ولا جدال في أن العلم يدرس الكون وحادثـات الكون « بحيـاد تام » . يـدرس خواص الاشياء ، ويتتبع سير الحادثات ، يتحرى أسبابها ، ويستقصي قوانينها ، وقد يتنبأ في بعض الاحوال بمستقبلها أيضاً ، استناداً الى القوانين التي اكتشفها ، والعوامـل التي أظهرها . . . انه يدرس كل ذلك ، دون أن يقدم على تحسين أو تقبيح الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، ودون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور ، لأن مهمة العلم تنحصر في معرفة حقائق الاشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا تتعدى ذلك الى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق واستحسان أو استهجان تلك القوانين . . .

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون ، ولنا أن نتصور مجتمعاً غير هذا المجتمع ، ولنا ألا

نكتفي بالتخيل والتصور بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر الى درجة التمني : فنتمنى أن يتحول الكون الى الحالة التي تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع الى الهيئة التي تصورناها . ولنا أن نذهب الى أبعد من ذلك أيضاً : لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه في هذا الباب مثلاً أعلى نسعى الى تحقيقه بنشاط وحماسة ، وهدفاً أسمى نمشي نحوه بقوة واندفاع . لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم في الوقت نفسه بأن تفكيرنا وعملنا في هذا السبيل يكون من نوع الشعر أو الفلسفة أو السياسة ، فلا يدخل في نطاق « البحث العلمي » بوجه من الوجوه .

لكم ، أيها الاستاذ ، أن تتمنوا زوال الانانية من الامم ، ولكم أن تصبوا نحو رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة ، مهما كانت قوة هذه الدولة ومكانتها ، ولكم اذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمي الى تضحية الدولة الواحدة في سبيل مصلحة سائر الدول ، فانني لا أناقشكم في كل ذلك في هذا المقام ، غير أنني أقول بأنه لا يحق لكم أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه الى « العلم » فتقولوا : العلم لا يتفق مع الوطنية .

فاننا مهما تعمقنا في تحليل طبيعة العلم من جهة ، وطبيعة الوطنية من جهة أخرى ، لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بحال من الاحوال .

*

بعد أن وصلنا الى هذه المرحلة من المناقشة ، أرى أن نترك هذه الأحكام الآنيَّة جانباً ، لنستقرىء الوقائع التاريخية ، فنرى ما اذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلاً في مختلف الاجيال .

إنني أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على اتفاق العلم مع الوطنية ، وخدمة العلم للوطنية بصورة فعلية . ولعل أقدم هذه الوقائع تعود الى عهد « أرخميدس » الشهير ، وتتعلق بقصة مقاومته للرومان . فان هذا العالم الكبير الذي يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذي يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية في دروس الطبيعة والاشياء ، هذا العالم الكبير لعب ـ بعلمه ـ دوراً هاماً في تاريخ وطنه « سيراكوزا » . فعندما حاصرها الرومان وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع في خدمة وطنه ، فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين ، فمكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الابطال . إذن فالعلم والوطنية اتفقا في نفسية أرخميدس في أمر الدفاع عن الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه .

إن الثورة الفرنسية أيضاً تعطي لنا مثالاً بارزاً عن تعاون العلم والوطنية : فعندما تألبت الدول الأوروبية على فرنسا بقصد خنق الثورة في مهدها ، جابهت الدولة المذكورة

مشكلة كبرى كادت أن تصبح مميتة لولا مساعدة العلم والعلماء لها . فان الحصار الذي أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات ، حرم رجال الثورة من امكان استيراد المواد الاصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والاسلحة . عندئذ فكرت لجنة الدفاع العام في الاستفادة من علماء الكيمياء ، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من محنته هذه . وهؤلاء ـ ونخص منهم بالذكر « برتوله » و « فوركروا » ـ وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية نحو ايجاد الطرق التي تساعد على تحضير المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد ، فنجحوا في مسعاهم هذا ، وخدموا وطنهم بذلك أجلّ الخدمات .

بعد ذلك نستطيع أن نقول إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التي يصعب احصاؤ ها ؛ فان صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى ، مملوءة بأمثلة بليغة على ذلك . . . ولا سيما ما حدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون ، أيها الاستاذ ، « ان هذه كلها من الأمور التطبيقية » وستكررون في هذا المقام رأيكم في « العلم وتطبيق العلم » ، لأنكم قلتم في كلمتكم ـ التي نحن في صدد البحث فيها ـ « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة ، لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الاعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم ، فليسوا من العلماء وان درسوا العلم دراسة عميقة » .

فاسمحوا لي أن أقول : ان الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية في أمر « العلوم وتطبيقاتها » فان استغلال نتائج العلوم ـ بعد اكتشافها ـ لا يكون دائماً من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد في تاريخ العلوم ، ان العالِم الباحث بعد أن يتوصل الى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه الى التفكير في الفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها . فهل يحق لنا ـ في هذه الحالة ـ أن نخرجه من عداد العلماء بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة بل تعدى ذلك الى التفكير في الاستفادة منها ؟ هل يحق لنا مثلاً الا نعتبر ارخميدس من العلماء الحقيقيين ـ بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة ـ لمجرد اقدامه على تطبيق بعض القوانين التي اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة ـ لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين ـ واقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية الى الاتجاه الذي تتطلبه منه خدمة الوطن ؟

كلا . . . فإن مبدأ العلم للعلم يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها ، كلما أمكن ذلك .

إن المبدأ المذكور يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الابحاث العلمية نحو الحقائق التي ينتظر فائدة وطنية من وراء معرفتها . . .

*

هذا ، واتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب عليّ أن أشير الى بعض الحوادث التي تدل على شيء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية في بعض الأحوال . . .

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالاً بارزاً لذلك . فإن رجال الثورة اعدموا « لافوازييه » الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث و « بامبيه » الذي اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » الذي كان من كبار المفكرين ، فاضطروه الى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب . . .

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية من حيث الاساس . لأن العالِم قلما يتفرغ الى الابحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ؛ فانه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيراً ما يقوم ببعض الاعمال السياسية أيضاً . كما أن تفكيراته لا تكون علمية في كل الموضوعات . اذ انه قد يفكر كما يفكر سائر الناس في المسائل التي تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما في الأمور التي تدخل في ساحة الدعايات الحزبية والاعمال السياسية . فاذا حدثت مخالفة بينه وبين رجال الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه ، لا بسبب علمه .

فإن « لافوازييه » مثلاً كان من النبلاء الذين يحملون لقب المركيز ، كما انه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية ـ بحق أو بغير حق ـ بالخيانة للوطن وحاكموه فاعدموه ، كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جرّاء أبحاثه وآرائه العلمية . . .

وكذلك الأمر في « اينشتاين » فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الالمانية ـ بحق أو بغير حق ـ في سلوكه ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جرّاء أعماله السياسية لا من جرّاء أبحاثه وآرائه العلمية .

*

وربما كان من المفيد أن نذكر رأي بعض العلماء ، لتنوير هذا البحث أكثر من كل ما

تقدم . وربما كان رأي « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات في هذا الباب :

إن هذا العالِم الذي يعتبر بحق من الاعاظم الذين تجسم وتجسد فيهم روح البحث العلمي بأكمل معانيه ، والذي قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من ابرز وأنجع الامثلة للطريقة التجريبية . . . هذا العالِم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته . وقد قال في خطبة بليغة ألقاها في أحد المؤتمرات الأممية العبارات التالية : « لا وطن للعلم ، أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه . ومع هذا ، لكل عالِم وطن . وعلى رجل العلم أن يهتم بكل ما يساعد على مجد وطنه . وفي كل عالِم حقيقي كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً » .

*

وبعد الانتهاء من هذه الابحاث ، اسمحوا لي أن أعود الى احدى القضايا التي كنت سلمت بها مؤقتاً ، تسهيلاً لحل المسائل خطوة خطوة ، وهي أولى القضايا الثلاث التي ذكرتموها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية .

« الوطنية هي الانانية في المجموع » .

انني لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الاساس . غير أنني أرى من الضروري أن نتمها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هي الانانية في المجموع ، غير أنها الايثار في الافراد » .

نعم ان الوطنية هي الايثار ـ بالنسبة الى افراد البشر ، ولو كانت من نوع الانانية بالنسبة الى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرقى وأنقى أشكال الايثار . فإن مظاهر الايثار لا تتجلى في ساحة من ساحات اعمال الانسان ، بالتنوع والسمو والقوة التي تتجلى بها في ساحة الوطنية . وأما مظاهر الايثار التي تتولد من الشعور الاممي فتبقى بجانب ذلك شيئاً غير مذكور . . .

إن هذه المسألة تحتاج الى بحث خاص ، لا أود أن أتوسع فيه الآن ، غير أنني أود أن أختم هذه الرسالة بكلمة وجيزة قالها « جان جاك روسو » بأسلوبه الخلاّب : « بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التي يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين » .

رد على تصريحات الشيخ المراغي (١٤)

« ليس لي رأي في الوحدة العربية . . . لا أشتغل بها . . . لست من أنصارها ، ولا من أعدائها » .

لو نقل اليّ ناقل هذه الكلمات دون أن يذكر لي اسم قائلها ، وطلب اليّ أن أحزر ـ بقوة العقل والمنطق ـ جنسية المفكر الذي قالها ، لما ترددت في الحكم بأنه من منتسبي أمة من الأمم الكثيرة التي تعيش بعيدة عن العالم العربي الفسيح ، دون أن ترتبط بـه بصلة من الصلات الجغرافية أو التاريخية أو القومية أو الثقافية . . . ولأخذت استعرض في ذهني ، تلك البلاد النائية ـ من السويد الى الترنسفال ، ومن التبت الى الآلاسكا ـ دون أن أقف لحظة واحدة فوق ناحية من نواحي آسيا العربية أو افريقيا العربية .

ولهذا السبب ، دهشت دهشة كبيرة ، عندما رأيت أن هذه الكلمات تحمل توقيع « محمد مصطفى المراغي » ، وهو الشيخ المشهور الذي يرأس أقدم المعاهد العلمية القائمة في البلاد العربية . وتذكرت بأن ذلك المعهد قام بخدمة تاريخيـة خطيـرة في حفظ حياة الآداب العربية في دور انحطاطها الطويل . . . وهيأ لها سبل النهوض في دور بعثها الأخير .

غير أن دهشتي هذه زادت وتضاعفت ، عندما قرأت البراهين التي أراد الاستـاذ المراغي أن يبرر بها هذه الكلمات .

لقد قال الاستاذ المراغي ، في الكتاب الذي أرسله الى جريدة المصري ما يأتي : « غير خافٍ عليكم أن الدين لم يذهب الى العصبية الجنسية ، ولم يفرق بين العربي وغير العربي ، وجعل الامة الاسلامية وحدة لا فرق بين أجناسها . . . » .

---

(١٤) حديث نشر في جريدة **الاستقلال** ببغداد .

انني لا أفهم كيف يستطيع الاستاذ المراغي أن يعتبر ذلك برهاناً على صدق دعواه ؟

اذا كان الدين لم يذهب الى العصبية الجنسية ، فهل يذهب الى العصبية الاقليمية ؟

واذا كان الدين لا يفرق بين العربي وغير العربي ، فهل يسوغ التفريق بين المصري والشامي والعراقي ؟

واذا كان الدين قد جعل الامة الاسلامية وحدة لا فرق بين اجناسها ، أفلا يكون قد جعل في الوقت نفسه ، الأمة العربية أيضاً وحدة لا فرق بين شعوبها ؟

أنا أفهم أن يكون الاستاذ المراغي ممن لا يكتفون بالوحدة العربية وحدها ، وممن ينزعون الى وجدة أبعد وأشمل منها ، فيسعون وراء وحدة اسلامية عامة . غير أنني لا أفهم كيف يستطيع أن يتخذ هذه النزعة وسيلة لاهمال الوحدة العربية ، ومبرراً للدعوة الى عدم الاشتغال بها ؟

إنني لا أود أن أناقش الاستاذ المراغي في امكان أو عدم امكان تحقيق الوحدة الاسلامية ، كما لا أرى حاجة للدخول معه في نقاش حول مسألة الجنسية في الاسلام ، ولا للاعتراض على قوله « بأن الاتجاه بالتفكير الى الوحدة التي يتطلبها القرآن ، هو الذي يتحتم على علماء المسلمين » . مع كل هذا لا أرى علاقة منطقية بين « دعوة علماء المسلمين الى العمل في سبيل الوحدة الاسلامية » وبين دعوتهم « الى عدم الاشتغال بالوحدة العربية » .

كيف يجوز لأحد أن يقول : يتحتم على علماء المسلمين أن يسعوا لتحقيق الوحدة بين العربي والايراني والهندي والتركي ، ولا يجوز لهم أن يشتغلوا بتحقيق الوحدة بين الشامي والمصري والحجازي ؟

كيف يمكن لأحد أن يأمل بتكوين وحدة من البلاد الاسلامية التي تتكلم بلغات مختلفة ، دون تكوين وحدة من البلاد التي تتكلم بلغة واحدة ، ولا سيما التي تتكلم بلغة القرآن ؟

انني أعتقد بأن الذين يتجهون بتفكيرهم الى الوحدة التي يتطلبها القرآن ، ـ حسب تعبير فضيلة الشيخ المراغي ـ ، لا يستطيعون أن يهملوا الوحدة العربية ، دون أن يناقضوا أنفسهم ؛ فيترتب عليهم أن يشتغلوا بالوحدة العربية ، في سبيل الديانة الاسلامية ، ان لم يكن في سبيل العزّة القومية .

*

* *

الاعمال القومية لساطع الحصري

طبعة خاصة يصدرها
مركز دراسات الوحدة العربية

١ ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية
٢ ـ أحاديث في التربية والاجتماع
٣ ـ صفحات من الماضي القريب
٤ ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها
٥ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية
٦ ـ آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة
٧ ـ آراء واحاديث في القومية العربية
٨ ـ آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع
٩ ـ العروبة اولاً!
١٠ ـ دفاع عن العروبة
١١ ـ في اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية
١٢ ـ حول الوحدة الثقافية العربية
١٣ ـ ما هي القومية
١٤ ـ حول القومية العربية
١٥ ـ الاقليمية جذورها وبذورها
١٦ ـ ثقافتنا في جامعة الدول العربية
١٧ ـ ابحاث مختارة في القومية العربية

ابو خلدون ساطع الحصري

■ ولد في صنعاء اليمن عام ١٨٧٩. وهو من عائلة عربية اصلها من الحجاز وقدمت الى حلب في القرن التاسع الهجري

■ عمل في السلك الاداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الاولى

■ التحق بالملك فيصل الاول واصبح وزيراً للمعارف في الحكم الفيصلي بدمشق

■ فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون

■ خرج من سوريا مع الملك فيصل الاول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة

■ جُرد من جنسيته العراقية وأُخرج من العراق عام ١٩٤١، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية ـ البريطانية

■ عمل مستشاراً للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية

■ أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام ١٩٥٣ واصبح مديراً له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية

■ توفي في بغداد عام ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الامام الاعظم.

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون
ص. ب : ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون : ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤
برقياً : « مرعربي »
تلكس : ٢٣١١٤ مارابي

الثمن

